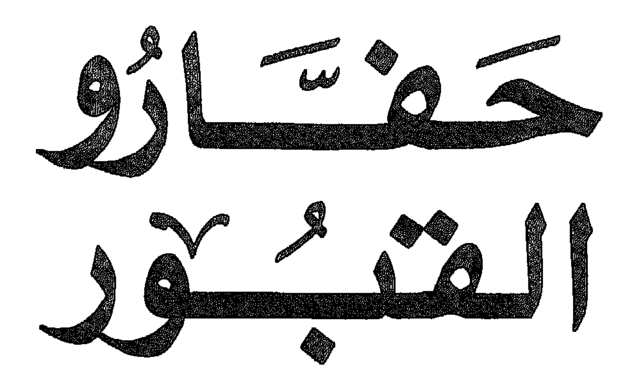
روجيه جارودي



الحضارة
التي تحفر
للإنسانية قبرها

ترجمة : عزة صبحي

دار الشروق

حفارو القبور

الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

الطبعة الثانية
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

الطبعة الثالثة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

مقـــدمة

يسيطر القلق الداهم على مليارات البشر من الرجال والنساء فى نهاية هذا القرن. نبع هذا القلق من تزايد البطالة والبؤس، من تزايد الشعور بعدم الأمن، وتسلط العنف. ولكن القلق نبع أكثر ما نبع من الشعور بأن حياتنا الشخصية وتاريخنا المشترك ليس لهما معنى - لامستقبل!- هذا ما كتبه الشباب على قمصانهم.

كان عام ١٩٩٢ واحدا من تلك اللحظات فى التاريخ، حين تثير إحدى الأزمات العميقة، التساؤل من جديد حول يقيننا. إنها أزمة تزعزع جذور حياتنا، وأهداف مجتمعاتنا، وفى نفس الوقت تتحدى الآمال.

إن طموح هذا الكتاب ربما يكون متجاوزا للحد؛ فهو يطالب القارئ بأسلوب آخر للحياة تنسجم فيه كل الأبعاد الإنسانية، من تلك الخاصة بالعاطفة والفن، لتلك الخاصة بالسياسة والإيمان.

* * *

إن ما درجنا على تسميته « اكتشاف أمريكا»، وتصفه اليونيسكو على استحياء بـ«التقاء الثقافات»، ويحتفل به البابا چون پول الثانى بزهو كأنه «تبشير بالإنجيل للعالم الجديد»، هو فى عام ١٩٩٢ : الاحتفال بمذابح الهنود، وبداية العهد الاستعمارى فى التاريخ الحديث*.

لكن، كان عام ١٩٩٢ مخلدا أيضا لذكرى مرور خمسمائة عام على سقوط غرناطة، آخر مملكة للثقافة الإسلامية فى إسپانيا، الجسر الأخير بين الشرق والغرب. ظلت قرطبة طوال ثلاثة قرون مركزا لإشعاع العلوم والفلسفة والآداب والفنون إلى كل أوربا. وفى عام ١٤٩٢ سُلخت قرطبة عن الثقافة العربية الإسلامية، المصدر الثالث لحضارتها، مع الثقافة اليهودية المسيحية، والثقافة اليونانية الرومانية.

فى عام ١٩٩٢، سجلت حرب الخليج، اكتمال العمل الذى بدأ فى عام ١٤٩٢، وهو انقسام العالم إلى نصفين.

كشف تدمير العراق فى عام ١٩٩٢ عن حرب من نوع جديد **، حرب قائمة ليس فقط على استعمار دول أوربية متنافسة، مثل ما كان من إنجلترا وفرنسا، لكن على استعمار جماعى، متعدد الجنسيات متآلف تحت سيطرة الأقوى: الولايات المتحدة.

---

* اقرأ: «٥٠٠ عام. الغزو مستمر» - د. ناعوم تشومسكى.

** اقرأ: «الحرب الحضارية الأولى» - د. المهدى منجرة.

إنها أول حرب استعمارية عالمية . حرب تحالف كل المستعمرين القدامى ، دون استثناء ، ومعهم «عملاؤهم» التقليديون المشترون والمجندون فى المواقع ، مثلما حدث فى الحروب الاستعمارية لإحدى الدول الأوربية ضد أحد شعوب العالم الثالث .

إن الاحتفال بإنجاز عمل المشاركة الاستعمارية لم يهدف فقط إلى إعادة إحدى دول العالم الثالث إلى عصر ما قبل الصناعة ، لكن أيضا إلى أن يجعل من هذا السحق نموذجا للهيمنة الغربية ، تحت القيادة الأمريكية . . إنه إنذار للعالم الثالث أجمع : بفضل هذا النظام العالمى وريث النظام الاستعمارى ، فإن خُمس سكان الأرض يتحكمون فى أربعة أخماس ثروات كوكب الأرض ، بما فيها البترول عصب النمو الغربى . يؤدى هذا النظام إلى مصرع ٦٠ مليون إنسان سنويا ، بسبب الجوع وسوء التغذية . يُكبد هذا «النظام العالمى» الجنوب يوميا ما يقارب ضحايا هيروشيما !

كان عام ١٩٩٢ عام إتمام انهيار اشتراكية الدولة فى الشرق ، الفشل الثالث ، بعد أعوام ١٨٤٨ و ١٨٧١ و ١٩١٧ لمحاولات إيجاد نظام بديل للنظام السائد حيث السوق هو المنظم الوحيد للعلاقات بين البشر . كيف أدى فساد النظام إلى إحياء الرأسمالية وإلى انفجار القوميات؟

فى عام ١٩٩٢ ، بدأت أوربا كما بدأت الأمم من قبل ، فى القرن التاسع عشر : سوقا فرديا . سوقا للقارة يعمل بفكر داروين ، مفتوحا

للولايات المتحدة واليابان . فهل تلعب القارة دور الحلف المقدس باسم الدين السائد : «وحدانية السوق» فى مواجهة الجنوب؟ وهل أصبح الشرق أرضا للتبشير بهذه العبادة الوثنية : السوق ، التى استحضرها البابا؟

عام ١٩٩٢ كان عام قمة الهيمنة للولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

إلى أى زمن يعود خطأ التحول الذى قادنا إلى هذا القلق وإلى هذا الضلال؟ لم أشر بما يكفى لتزايد البطالة والعنف . وكما كتب مالرو : « حضارتنا هى الأولى فى التاريخ ، التى إذا طرح السؤال الأهم : «ما معنى الحياة؟» ، أجابت : «لا أعرف» . على مدى القرن ، فشلت كل محاولات الإجابة .

عرفت أقدم الحضارات ، تلك التى فى الهند ، فى الصين ، فى فارس . . . لحظات صحوة فتحت أمام الإنسانية مستقبلا مختلفا عن ذلك التى تطرحه الحضارة الغربية .

ثورة غاندى التى شجعها كبار المفكرين فى الهند ، والتى كانت رسالتها بمثابة النور لمختلف أنحاء العالم ، للملايين من الواثقين به ، نُبذت ، حتى قبل موت غاندى ، من قِبل سياسيين ليس لهم أى أفق سوى العمل البرلمانى الإنجليزى والتخطيط السوفيتى .

أثارت الثورة الثقافية الصينية لبعض الوقت حماسة أكثر

المناضلين شبابا، الذين وجدوا فيها ميلاد عالم جديد. لم تعش هذه الثورة إلا لربيع واحد، ثم انزلقت إلى البراجماتية وإلى التعصب المميت. فعلى سبيل المثال، اعتبر بيتهوفن رمزا للموسيقى البرجوازية! !

إيران مهد الفنون الأولى، لفلسفة زرادشت، للملاحم العظيمة، من جيلجامش إلى الفردوسى، لأعمق علماء التصوف وشعرائه الصوفيين، للرومى، لحافظ، للسعدى.. جعلتنا هذه الحضارة القديمة نعتقد فى إمكانية البعث عندما تخلصت من دناءة «الحياة على الطريقة الأمريكية». لكنها تقلصت بسرعة شديدة بعد جمودها على ثيوقراطية كهنوتية *.

فقد تاريخ قرننا العشرين الكثير من الفرص، الكثير من الأبعاد الإنسانية، بعد السيطرة القاتلة لهؤلاء الذين ماتوا بالفعل فى الغرب، لكنهم لا يدركون!

فما هو إذن معنى هذا المنعطف التاريخى الذى وجدنا أنفسنا فيه فى عام ١٩٩٢؟

خُطط لهذا المنعطف بمد نفوذ السوق كمنظم وحيد للعلاقات الإنسانية على الصعيد العالمى، عن طريق الاستعمار الذى قام فى البداية بجعل الدول المحتلة مجرد روافد لاقتصاد الدول الاستعمارية. واليوم، أدى إزالة كل الحدود لهذه الهيمنة العالمية إلى انهيار الدول الاشتراكية.

---

* لعلها تعاود الانطلاق مع رئيسها الفيلسوف الدكتور خاتمى.

أطلق الأمريكى فوكوياما على هذه الهيمنة العالمية لوحدانية السوق «نهاية التاريخ». استُخدم هذا المصطلح اللاهوتى لأنه يتضمن مسألة دينية: تلك الخاصة بالأهداف النهائية للحياة.

يربط هذا الكتاب المشكلات السياسية، والمشكلات الدينية، ودون هذا الرباط لن نستطيع أن نفهم شيئا عن التطرف الحالى وعن اليقظة الحقيقية للإيمان.

عَبَّر صعود المسيح، فى الانحطاط الرومانى، عن الأمل فى عالم آخر، أُفسد سريعا بالهروب إلى عالم آخر. إنه درس عظيم بالنسبة لنا، فى الوقت الذى نعيش فيه مآزق مشابهة: هروب عن طريق المخدرات، والانزلاق فى خرافات الطوائف والديانات الجديدة... أو نداء لتغيير أهداف الحياة ومعانيها.

يهدف هذا الكتاب للعمل من أجل حل رموز هدفنا، وأيضا لتعديل اتجاهه. لا يمكن حل أى من مشكلاتنا - من البطالة إلى الهجرة، ومن الثقافة إلى العنف - طالما نعيش فى عالم يزداد خمس سكانه ثراء على حساب الباقين. إن وحدة العالم هى شرط استمرار الحياة.

لا يجب اعتبار العالم الثالث مجرد سوق لفائض إنتاجنا، بداية من التسليح إلى الآلات، لكن على العكس يجب إعادة توجيه صناعتنا، لتلبية الحاجات الضرورية للعالم الثالث. هكذا نخرج من المآزق الزائفة: تغيير العالم أولا، أم تغيير الإنسان أولا؟ إن تحويل

اهتمامات الصناعة إلى سابق عهدها، والاهتداء الروحي، أمران لا يمكن الفصل بينهما.

لم تفلح نبوءات الكنيسة، ولا الثورات الاقتصادية ولا التكنولوچية ولا السياسية، في تغيير الإنسان أو العالم. عرفنا الكثير من المبشرين الملائكيين غير القادرين، والكثير من الثوار الذين أرادوا تغيير كل شيء . . . ما عدا أنفسهم.

تظن «الحداثة» أن العلم والتقنية هما المعايير الوحيدة للتقدم.

يقودنا دين الوسائل هذا إلى الهاوية. حفارو القبور هم هؤلاء الذين يروجون له، هكذا يحفرون ـ بلا تبصر ـ قبورنا.

ليس للحياة معنى إلا بالاعتقاد في وجود إله.

نحن نعيش اليوم تحت شكل جديد من الهيمنة، هيمنة وسائل الإعلام. ويتطلع الملايين من كل لون ومذهب إلى أن يصبح لحياتهم معنى. ويساعد هذا الكتاب على ذلك.

الجـــزء الأول

العالَم المُحطَّم والهيمنة الجديدة

«ـ سيدى . هل صحيح، أنكم اجتحتم الپاستيل أمس، ١٤ من يوليو عام ١٧٨٩ ، منتهكين بذلك القانون؟ وأنكم قطعتم عنق حاكم السجن بالرغم من كل القوانين الإلهية والإنسانية؟ بل إنكم أيضا تجولتم برأسه، وهى تدمى، على سن رمح فى كل أنحاء باريس؟!

ـ نعم سيدى . كل هذا صحيح!

ـ إنكم مجرمون! أو ملعونون! كذلك الذين سيقومون فى المستقبل بالاحتفال بذكرى جريمتكم الشنعاء وكأنها عيد قومى!» .

هل هذا حلم؟ . . . لا !

نسمع هذه الكلمات كل يوم منذ عامين أو أكثر . صحيح أن الممثلين مختلفون، لكن «المنطق» هو نفسه : يتظاهر رجال السياسة ووسائل الإعلام بالاعتقاد بأن تاريخ الخليج لم يبدأ إلا فى ٢ من أغسطس عام ١٩٩٠ .

ارتكب صدام حسين خطأ بالرد على الحرب الاقتصادية التى

ارتكبت ضد بلاده، بالغزو العسكرى للكويت، معطيا بذلك للولايات المتحدة الذريعة التى كانت تنتظرها منذ نصف قرن، منذ محاولة مصدق تأميم البترول الإيرانى* ، والتى أدت فى ذلك الوقت لتحرك أمريكى فى الخليج.

هكذا، أصبح ممكنا إطلاق تعبير « الدفاع عن حقوق دولية» على ما حقيقته الحفاظ على الوضع الاستعمارى الراهن.

كيف أصبح الدفاع عن « الحق الدولى» مسئولية هؤلاء الذين لم يتوقفوا عن انتهاكه، مثل الولايات المتحدة فى پنما أو فى جرينادا - حتى لا نتكلم إلا عن السنوات الأخيرة - أو هؤلاء الذين لم يتوقفوا عن تركه ينتهك من قِبَل دول أخرى، مثل إسرائيل التى ضمت القدس أو التى تحتل وتضرِب غزة والضفة الغربية؟

«الدفاع عن الحق» لا يمكن أن يكون انتقائيا، لا يمكن تطبيقه بعناد فى حالة «ضم الكويت»، ونسيان ضم القدس. صحيح أن القدس ليست سوى مدينة مقدسة، لكن الكويت مقدسة ألف مرة بما أنها محاطة بآبار البترول!

رغم كل الأكاذيب حول الحرب النظيفة - الأشبه بالعملية الجراحية! - شن الأمريكيون على العراق حربا كاملة مستخدمين الوسائل التقنية الأكثر تعقيدا وسادية: بربرية قُدمت إعلاميا كأنها

* فر شاه إيران من شعبه، ثم أعادته المخابرات الأمريكية وأجلسته على كرسى العرش.

لعبة إلكترونية، مع لوحات التصويب التى لا نرى عليها أبدا الضحايا الممزقين. لم يعدوا سوى الموتى الغربيين، أما الآخرون فلا يعدون!

اختبر الأمريكيون الصواريخ الموجهة بالليزر، واختراعات أخرى للشيطان ضد العراق. تشهد انفجارات القنابل النفاثة - ذات الأقل بقليل من الدمار الذى تخلفه القنابل النووية - على ارتقاء تفوق الولايات المتحدة فى المجالات البربرية. يتباهون بإلقاء ٦٠ ألف طن من المتفجرات فوق بغداد، حتى اليوم الرابع للحرب. هذا يعادل خمس مرات ما ألقوه على هيروشيما!

لم تكن تلك أصغر جرائم الولايات المتحدة والغرب كله، ولا واحدة من أصغر الدلائل على انحطاطهم الأخلاقى، حيث إن السياسيين وأجهزة الإعلام قبلوا دون إبداء السخط، حشرجات موت آلاف الجنود العراقيين الذين دفنوا أحياء بفعل بلدوزورات شوارزكوف. فهذا يعنى فى نظرهم «الحفاظ على الأرواح البشرية!» - كما عبر المتحدث الرسمى للپنتاجون - أرواح البيض، وبخاصة الأمريكيون، فهى الأرواح الوحيدة التى تعد وتؤخذ فى الحسبان... ولم يكن هناك أى موجات من الغضب فى الرأى العام الغربى.

رجعت العراق أمة لعصر ما قبل الصناعة، هكذا اعترفت الأمم المتحدة.

شمـــال ـ جنـــوب

قبل ظهور مصطلح الدولة النامية، كان هناك نمو مستقل عنا . تلك هى المأساة الكبرى لعصرنا .

أدت خمسة قرون من الاستعمار إلى نهب ثروات ثلاث قارات، وإلى تدمير اقتصادياتها، وتكبيلها بالديون .

قبل الدول النامية، كان هناك نمو مستقل عن أوربا التى أسست وجهة نظر خاصة للتاريخ، فى البداية تحت اسم «العناية الإلهية»، ثم « التطور»، ثم « التقدم»، ثم «النمو» . وجهة نظر من خلالها تكون القوة التقنية للتعامل مع الطبيعة والبشر هى المعيار الوحيد للقيم .

لعبت لغة المصطلحات دورها فى تسويغ كذبة مزدوجة . «دولة نامية» فى المجال الاقتصادى، لا تعنى دولة متخلفة أو متأخرة فى التطور التاريخى، ولكنها تعنى تبعية استعمارية تعوق فرص التنمية الذاتية، وتكرس الاقتصاد المحلى لخدمة الاقتصاد الأقوى .

يخفى مصطلح « على طريق التنمية» حقيقة ازدياد ثراء الدول الغنية على حساب الدول الفقيرة .

ابتكر المواطنون الأصليون ـ قبل أن يتم اكتشافهم من قبل الغرب ـ أشكال ثقافات متساوية على الأقل مع أجمل إنجازات أوربا ، وذلك بشهادة مرتزقة الغزو أنفسهم ، الذين انبهروا بـ «تنوشيتلات» ـ المكسيك حاليا ـ أكثر من انبهارهم بڤينيسيا .

إنه لمن النفاق ، ادعاء «التضحيات الإنسانية» ، ومحاولات إضفاء الشرعية على ذبح ٨٠٪ من سكان هذه القارة بسبب الأشغال الشاقة فى مناجم الذهب والمزارع ، لتحقيق حاجات العواصم الاستعمارية الغربية فقط . جاء ذلك فى شهادة السيد بارتولوم دى لاس كاساس فى كتابه : « العلاقة الصامتة لتدمير الهند الغربية » ، وهو الذى طرد من أسقفيته فى التشيياس على أيدى المستوطنين من تجار العبيد .

أين الهمج؟ قال الأسقف : الهمجية جاءت من أوربا !

لا تنتمى مطاردة الهنود إلى الماضى فقط ، أو إلى العنصريين من المستوطنين الأوائل ، فهى مازالت مستمرة فى الولايات المتحدة وكندا وحتى غابات الأمازون ، حيث يقوم كبار ملاك الأراضى بذبح الهنود .

حضارة اختفت من التاريخ :

لا نستطيع أن نفهم شيئا من الأوضاع الفوضوية ، وأحيانا من احتضار بعض مناطق العالم ـ مثل إفريقيا السوداء ـ ولا من موجات التطرف والتدمير المادى والروحى لمجتمعاتهم وثقافاتهم ، وذلك إذا

ما تجاهلنا خمسة قرون من الاستعمار ، ترتب عليها الإخفاقات والانتفاضات وموجات الجنون التى نعانى منها اليوم .

تقدم الهند النموذج التقليدى لعمل الآلية الاستعمارية ، حيث عانت المصائب الثلاث :

- خلق طبقة متميزة من العملاء يخدمون المستعمر نظير أجر عال على حساب بقية الشعب .

- نهب خيرات البلد .

- تسخير الاقتصاد كله لخدمة المستعمر ، بشكل يصعب الفكاك منه ، حتى بعد التحرر من المستعمر .

كتب السفير المقيم فى مورشيد آباد فى عام ١٧٦٩ : « **إن هذا البلد الجميل الذى كان مزدهرا فى ظل أكثر الحكومات استبدادا وتعسفا ، أصبح على شفا الخراب منذ اشترك الإنجليز فى إدارته** » .

كشف التقرير الرسمى لشركة الهند فى عام ١٧٧٠ عن أنه « **هلك أكثر من ثلثى السكان فى الضواحى التى كانت سابقا مزدهرة فى برنيش ، والمأساة كبيرة فى أماكن أخرى أيضا** » .

كتب الحاكم العام للهند ، اللورد كورنواليس عام ١٧٨٩ هذه الشهادة : « يمكننى أن أعلن بكل ثقة * أن ثلث أراضى الشركة فى هندوستان أصبحت الآن غابة تسكنها الحيوانات المتوحشة فقط » .

---

* كان عليه أن يضيف : وبكل فخر !

اشترط «القانون العقارى الدائم» عام ١٧٩٣ الذى أعلنه اللورد كورنواليس للتطبيق فى البنجال وبيهار، ضرورة أن يكون «الزاميندار» - وهم المكلفون باستقطاع الضرائب بعد هذا القانون - من ملاك العقارات.

ضمن الإنجليز بذلك تجنيد متعاونين أقوياء معهم طوال أكثر من قرن. كتبت جمعية رابطة كبار الملاك إلى نائب الملك فى عام ١٩٢٥ : «يمكن لسموك أن تعتمد دون تحفظ على تأييد ودعم ملاك العقارات».

كانت أول نتيجة لهذا النظام الجديد هى تحويل الهند إلى ملكية خاصة، واغتُصبت بذلك من الفلاحين الفقراء أراضيهم التى كانت تتيح لهم إنتاج قوتهم، **مما أدى إلى المجاعة ووفاة مليون شخص فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٢٠، ووفاة ٥ ملايين شخص فيما بين عامى ١٨٥٠ و١٨٧٥، ووفاة ١٥ مليون شخص فيما بين عامى ١٨٧٥، ١٩٠٠.**

وللتنصل من جريمة الإبادة الجماعية، تم تلفيق التهمة لزيادة عدد السكان، بينما تقول الإحصائيات : إنه فى مقابل زيادة تعداد بريطانيا ٥٨٪ فى الفترة من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٠ زاد تعداد الهند بنسبة ١٨,٩٪.

أتاحت الثورة الصناعية الإنجليزية استغلال بقية شعوب العالم.

فالهند التى كانت فى ذلك الوقت مصدرة للمنسوجات القطنية إلى

جميع أنحاء العالم، تحولت إلى مستوردة للمنسوجات القطنية الإنجليزية، مما أدى لتهديد ١٨٪ من السكان - وهم الذين يعملون فى صناعة النسيج - بالبطالة وانعدام الدخل.

وبفضل لعبة حرية التجارة، زادت الصادرات الإنجليزية إلى الهند من ١ مليون ياردة عام ١٨١٤ إلى ٥١ مليون ياردة عام ١٨٣٥. هكذا بعد ضرب الفلاحين تم ضرب الحرفيين فى مقتل.

الأكثر دلالة أيضا: زادت صادرات الحبوب والطعام من الهند التى أصبحت تعانى بالفعل من المجاعة، من ٨٥٠ ألف جنيه فى عام ١٨٤٩ إلى ١٩ مليون جنيه فى عام ١٩١٤.

أكد تقرير الچنرال سير چون ماجرو، مدير الخدمة الطبية الهندية أن ٦١٪ من الشعب يعانى من سوء التغذية.

أدت سيطرة رأس المال الأجنبى على الاقتصاد إلى تحويل الهند بعد تحررها من الاستعمار إلى اقتصاد تابع للغرب.

احتفظت رءوس الأموال الأجنبية بسيطرتها على هذا البلد، بعد استقلاله فى عام ١٩٤٧، فكان لها ٩٧٪ من البترول، ٩٣٪ من الكاوتشوك، ٦٢٪ من الفحم، ٧٣٪ من مناجم الحديد... إلخ.

يمكننا أن نقوم بنفس التحليل فى تفكيك البنيات الاقتصادية (وأيضا البنيات السياسية والروحية) لبقية الدول المستعمَرة من قبل: إنجلترا و فرنسا و بلچيكا وهولندا وإيطاليا... (نادى قدامى المستعمرين). ولنأخذ مثلا آخرا:

الجـزائـر:

التطرف الجزائرى لـ FIS* ليس سوى حالة خاصة لظاهرة عالمية. كانت سهلة التوقع، كما هو سهل توقع انفجارات أخرى فى المستقبل، فى أشكال مختلفة، ليس فقط فى المغرب العربى والعالم العربى، لكن أيضا فى مجمل الدول الإسلامية، وأيضا فى أمريكا اللاتينية وإفريقيا وفى آسيا، بكلمة واحدة: فى مجمل العالم الثالث.

لن يمكن فهم شىء إذن مما يحدث فى الجزائر إذا مافسر على أنه فقط مجرد رد فعل لانحلال الـ FLN* *، ضد فسادها، سياسة الحزب الواحد الاستبدادية القمعية.

لا يمكن الاقتراب من أى مشكلة راهنة إلا فى سياقها التاريخى، محليا وعالميا. مشكلة التطرف مثل غيرها من المشكلات. التطرف هو الادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة وفرضها على الآخرين.

أعطى الغرب الاستعمارى، منذ خمسة قرون ـ والعرض مستمر ـ مثال التطرف الأكثر فتكا، وهو الادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمى الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفى أو تدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية.

---

* FIS: اختصار اسم جبهة الإنقاذ الإسلامية. وهى تعرف به فى كل أنحاء العالم، وخاصة فى فرنسا والجزائر. (المترجمة).

* * FLN: جبهة التحرير الوطنى. الحزب الوحيد الحاكم فى الجزائر منذ استقلالها عام ١٩٦٠ وقبل إطلاق حرية تشكيل الأحزاب عام ١٩٨٤. (المترجمة).

برر الغرب تسلطه على العالم، ونهبه لثرواته، وقمعه لحرياته باختلاقات كثيرة، منها ما كان باسم رسالته فى قيادة العالم، ومسئوليته فى نشر الحضارة، بل وفى بعض الأحيان نشر المسيحية! . تحت مثل تلك الشعارات، نهب الغرب العالم وأباد بعض حضاراته بمعظم أفرادها! هكذا وصف چول فيرى النظام الاستعمارى وبرهن عليه.

تولَّد من هذا التطرف الأول للنظام الاستعمارى الغربى، كل أنواع التطرف الأخرى فى العالم، والتى تشكل ردود أفعال متوقعة للدفاع عن الهوية الشخصية، الثقافية أو الدينية، للشعوب المستعبدة.

أفسد الحلم الخادع بالعودة إلى الماضى ردود الفعل، كأنه العصر الذهبى - السابق للغزو الغربى - للحفاظ على الهوية. وكأنه ليس هناك خيار سوى بين محاكاة الغرب فى انحطاطه، أو الجمود على أشكال الماضى التى لا تناسب المستقبل.

ناب كل من صندوق النقد الدولى (IMF)، البنك الدولى، وآخرون مثل الجات، عن هذا النظام الاستعمارى، واستمروا فى فرض قواعد السوق الغربى ونمطه فى التنمية على دول العالم الثالث. يتفاقم الرعب الناتج عن فقد التوازن بسبب الهيمنة العالمية الأمريكية منذ أول حرب استعمارية عالمية فى الخليج الفارسى / العربى.

فقدت سفينة الفضاء «الأرض»، التى نبحر نحن كلنا على متنها ،

اتزانها ، وهى مهددة اليوم بعد خمسة قرون من الهيمنة الغربية المطلقة بالسقوط ، إذا ما استمررنا فى هذا الطريق . لم نكن لنتخيل إدارة أسوأ من ذلك لكوكب الأرض .

يجب وضع المشكلة الجزائرية فى هذا الإطار العام ، إذا ما كنا نريد أن نفهم حقيقتها .

بلغت الديون الجزائرية الخارجية الحالية ٢٣ مليار دولار ، تسدد عليها فوائد أكثر من ٥ مليارات ونصف مليار دولار سنويا . لايستطيع دخل البترول والغاز أن يفى بذلك .

خير البلد يذهب فى خدمة فوائد الدين المشكوك فى أصله وسببه . الذين يعانون من البطالة فى الجزائر عدة ملايين ، والشباب الذين بلغوا العشرين من عمرهم ليس لديهم عمل ، ولا أمل ، ولا مستقبل . تطرح جبهة الإنقاذ الإسلامى FIS برنامجا هزليا فيما يخص هذه المشكلة الكبرى . يتمثل فى : إعادة النساء إلى البيت لتوفير الوظائف للرجال! هناك فقط ٣٠٠ ألف امرأة جزائرية لديهن عمل بأجر خارج البيت .

حل ديماجوجى يماثل ما يطرحه لوپن فى فرنسا ، من ضرورة طرد المهاجرين لتوفير عمل للفرنسيين .

السبب الحقيقى للبطالة وسوء التنمية مذهل .

أطعمت الجزائر جيوش الثورة الفرنسية والإمبراطورية بفضل صادراتها من القمح . وكان حاكم الجزائر قد نفد صبره وطرد القنصل الفرنسى ، بعد رفض الحكومات الفرنسية فى الفترة من عام ١٨١٥

إلى عام ١٨٣٠ دفع ديونها للجزائر! وكان القنصل الفرنسي يعد دائما بالوفاء بالدين، ويطالب برشا لحث الحكومة الفرنسية على التسديد، فكان يأخذ الرشا ولا يسدد الدين. استخدم هذا الموقف كذريعة لاحتلال فرنسا للجزائر لمدة تقرب من قرن ونصف القرن. وبعد أن كانت الجزائر تصدر القمح، أصبحت تعتمد على الصادرات الفرنسية من أجل قوتها.

هل يجب أن نضيف أنه بالجزائر كانت نسبة التعليم العربى ٦٥٪ من السكان تحت قيادة الأمير عبد القادر، بينما عند تحريرها أصبح بها ٦٥٪ من الأميين مع ٨٪ فقط من الشعب الجزائرى ذى ثقافة فرنسية ؟!

ليست الجزائر فى حاجة إلى طائرات مقاتلة من طراز ميراچ، ولا إلى عطور وأزياء فرنسية، ولكنها تحتاج إلى تكنولوچيا زراعية وصناعية فى المقام الأول.

جربت الجزائر على مر العصور كل أشكال الاستغلال والانحطاط من قبل الغرب: رأسمالية الغرب والنظام الاستعمارى، بعد التحرير السياسى، وفي عهد بومدين، محاكاة النموذج السوڤيتى لعملقة الصناعة التى أدت إلى الخراب؛ ثم الاندماج الجزائرى البطىء فى اقتصاد السوق العالمى عن طريق صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى والمقرضين الأجانب.

كان الخطأ الكبير والعميق لجبهة التحرير الوطنى، هو التأرجح دون توقف بين النموذجين المستوردين، السوڤيتى والأمريكى. اليوم كل منهما فى انحطاط مثل الغرب نفسه.

يمثل قيام جبهة الإنقاذ الإسلامى FIS رد فعل رافضا للنماذج الغربية . فكلها تقود فى النهاية ، تحت السيطرة الأمريكية إلى وحدانية السوق ، أى المال ، ملزمين كل مجتمع أن تكون المنافسة فيه هى الحكم الوحيد ، بالحرب من كل شىء ضد كل شىء ، بمنطق الإنسان ذئب لأخيه الإنسان ، والبقاء للأصلح !

«اقتصاد السوق» هذا ، الذى يطلق عليه اسم ملائكى وخادع «حرية السوق» خلق مجتمعا يدعى كل شخص فيه ، وهو يستهدف مصلحته الشخصية ، أنه يحقق المصلحة العامة . أيضا ، ما يطلقون عليه بفضول «الليبرالية» هى غابة ، حيث الصراع على مستوى الأفراد والأمم والعالم . والنتيجة : الحال التاريخى الراهن . شىء لا يرغب فيه أحد .

كل أشكال التطرف فى العالم الثالث هى ردود أفعال لرفض هذه الديانة ، التى لا تجرؤ على أن تبوح باسمها ، والتى هى بالفعل الوحيدة التى تسيطر فى العلاقات الدولية .

احتفل هنود أمريكا ، فى عام ١٩٩٢ بمرور «خمسمائة عام على المقاومة الهندية» ضد خلفاء كريستوفر كولومبس ، وذلك من أجل الدفاع عن هويتهم الإنسانية وثقافاتهم .

تؤكد مثل هذه الثورات من الصين إلى أمريكا أن الرفض ليس حكرًا على الإسلام .

ولدت الثورة الإسلامية فى إيران من نفس الرفض لنمط الحياة الأمريكية الذى رغب الشاه فى فرضه .

أطلقت عبارة «حفارو القبور» على هؤلاء الذين يمجدون هذه لديانه الشمولية لوحدانية السوق .

ستندلع ثورات أخرى وانفجارات أخرى ضد هذه الديانه العدمية ، ضد حفارى قبور الإنسان ، من آسيا وإلى إفريقيا وإلى أمريكا للاتينية . فى أشكال دينية ضالة أحيانا ، لكن فى أشكال دينية ، لأن لمقصود مشكلة دينية ، تلك الخاصة بمعنى الحياة .

حضارة الغرب غير قادرة على الإجابة عن هذه المشكلة الإنسانية لى أقصى درجات العمق .

ألا يعنى ذلك تعريفا لها بالانحطاط ؟

الفوضى الجزائرية الحالية هى إحدى الحالات الخاصة لهذه لأزمة الكونية للمعانى . هناك وجهتا نظر للمستقبل تتصارعان في لجزائر ، وفى كل أنحاء العالم .

فى قلب أعداد لا تحصى من البشر ، ثورة ضد العالم الغربى عديم لمعنى ، وهذا ليس فقط فى الريف أو بين العاطلين فى المدن ، لكن أيضا عند المثقفين الأكثر يقظة . لكن هذا الرفض الشرعى لمحاكاة الغرب فى كل أشكاله السوفيتية أو الأمريكية ، يعبر عن نفسه من خلال التبشير بأمل غامض لديانة تعيد إلى الإنسان أبعاده الإنسانية .

يبحث البعض عن هذه الديانة بين طيات الماضى ، كما لو كان الإسلام عصيا على الفهم بعقول الحاضر والمستقبل . لم يتوقف الإسلام عن المناداة بالتأمل الشخصى ، وبإعمال الفكر والعقل

والحواس من أجل المشاركة فى الخلق الإلهى المتجدد دائما أبدا* .

الأسلمة هى مرض الدين الإسلامى . انطلاقا منها ، يثرثرون حول الماضى ، كأن كل المشكلات تم حلها نهائيا فى الماضى . كأنها قراءة القرآن بعيون الموتى ، مثل الآخرين أيضا ، من المسيحية إلى اليهودية ، ومن الهندوسية إلى الطاوية ** ، الذين يقرءون نصوصهم المقدسة بعيون الموتى .

فى الجزائر تيار غربى قوى ، يضم العديد من رجال الأعمال ، المهربين ، المثقفين المستغربين ، العسكريين ذوى الرتب العليا ـ مثل الموجودين فى أمريكا اللاتينية أو فى إفريقيا ـ الذين لا يحلمون سوى بدمج الجزائر فى السوق العالمية . هؤلاء طردوا الشاذلى ، المنحاز إلى «المشاركة الشعبية» والضعيف جدا عن أن يعلن ويبلغ ذلك .

فازت الجبهة بالانتخابات ، فأزاحتها دكتاتورية العسكر لإنقاذ الديمقراطية !

هذا يذكرنا بالسخرية المأساوية لبريخت : «أدان الشعب الحكومة . ألن يكون من الأسهل أن تقوم الحكومة بحل الشعب وانتخاب آخر ؟» .

---

* ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ ٥٣ سورة فصلت .
﴿كلَّ يوم هو فى شأن﴾ ٢٩ سورة الرحمن .

** الطاوية : فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصينى فى القرن السادس قبل الميلاد (المترجمة) .

من خلال متابعة التليفزيون وأجهزة إعلامنا الديمقراطية ،ديمقراطيتنا الفرنسية» ، كان السؤال المهم : من سيكون له النصيب لأكبر فى السوق الجزائرية؟

فى محاولتهم لكى ينسى الشعب الطعنة الكبيرة للديمقراطية ، زرعون الخوف من تطرف الـ FIS ، ويبحثون عن حجة أخلاقية ، يجدونها فى قطع الأيدى ، والتمييز العنصرى ضد النساء . لكن هذا لإدراك وهذا النمط الأخلاقى يعبر عن نفسه فى معنى واحد . نستقبل كل تقدير متطرفين ، نطير لنجدتهم ! لماذا؟ لأنهم زبائن ممتازون أسلحتنا وآلاتنا ، متعاونون مخلصون لمدننا بالبترول وتحديد سعاره ، فهو عصب نمونا . فى الجزائر ، وعلى العكس ، نقلق على مدادات الغاز ، وعلى صادراتنا ، وعلى نمونا ، **وهو ما أطلق عليه لأب پيير بحق : «برنامج لتحسين ظروف هؤلاء الذين لا ينقصهم ىء»** .

نخشى أيضا من هجرة الجزائريين ، فى حين أن الوسيلة الوحيدة لإنسانية والواقعية لوقف الهجرة ، هى عدم تضييق الخناق على معوب بأكملها ، مما يدفعها إلى الإفلاس ، وإلى اليأس ، وإلى غربة .

يقع على فرنسا والغرب كله جزء مهم من المسئولية لمثل هذا نوع من الانفجارات . يجب أيضا إحداث تغيير جذرى لعلاقاتنا مع عالم الثالث . للأسف ، لا يبدو أن هذا التغيير الجذرى يتم الآن .

لا توجد كلمة واحدة حول العالم الثالث فى ماستريخت . كما لو أننا نستطيع أ ن نبنى اليوم مجتمعا أيا كان نوعه ، دون التفكير فى علاقاته مع ثلاثة أرباع الكرة الأرضية .

على قاعدة من العلاقات الاقتصادية الجديدة ، المفيدة للطرفين ، سيصبح فى إمكانية الجزائر اختيار تنمية ذاتية ، قائمة على إيمانها الخاص ، وثقافتها الخاصة ، وتاريخها الخاص .

علينا نحن ، ألا نخلق قيودًا متطرفة من خلال التصدير بالإكراه للنماذج الغربية ، بإنكار هوية الآخرين . ويوجد داخل الـ FIS نفسها ، العديد من القادة والعديد من المناضلين يعيشون إسلاما متفتحا ، خلاقا . يمكن بدء حوار موثوق به لو أدرنا ظهورنا للأساليب الاستعمارية القديمة - التى تضمنت وضع العلماء التقدميين «من جمعية العلماء» فى إقامة جبرية تحت المراقبة ، الشيخ ابن باديس ، الشيخ الإبراهيمى ، الشيخ العُقبى - حوار مفتوح على المستقبل من خلال تأمل حىّ للقرآن .

* * *

كيف يمكن لمجتمعاتنا عديمة المبادئ دمج إخواننا المهاجرين ، وهى تنكر ما يمكن لإيمانهم أن يضيفه إلى كفاحنا الخاص ضد وحدانية السوق؟

كيف يندمجون فينا ونحن نستقبلهم بآذان وأبصار وقلوب رافضة مغلقة؟

ليس أمامنا إلا أن نعيش معا أو نسقط معًا .

بالنسبة لهؤلاء الذين يحاولون أن يروا حقيقة العالم، وليس من
حلال صورته فى التليفزيون ووسائل الإعلام، هناك حريقان
شتعلان :

١ـ التبادل غير المتكافئ بين الشمال والجنوب، بين اقتصاديات
لدمرة كليا بفعل قرون من النهب والاستعمار، واقتصاديات مشبعة
متخمة بما نهبته. إن حرية السوق هى حرية الأقوياء فى افتراس
لأكثر ضعفا. الدليل الأكثر سطوعا هو التدهور الدائم فى التبادل
تجارى.

**فى عام ١٩٥٤، كان يكفى لمواطن برازيلى أن يملك أربعة عشر
يسا من البن لكى يشترى سيارة چيب من الولايات المتحدة
لأمريكية. وفى عام ١٩٦٢، كان يلزم نفس المواطن تسعة وثلاثون
يسا. وفى عام ١٩٦٤ كان يمكن لمواطن من چامايكا أن يشترى
جرارا أمريكيا فى مقابل ٦٨٠ طن سكر. وفى عام ١٩٦٨ كان يلزمه
٣٥٠ طن. إن الدول الفقيرة مستمرة فى مساعدة الدول الثرية.**

تمثل فوائد الدين فى كثير من الأحيان نفس قيمة أصل الدين.
تساوى قيمة الفوائد مجمل الصادرات، مما يجعل أى «تنمية»
ستحيلة. إذن لا يعنى ذلك أنها دول نامية، كما يطلقون عليها
فاق، لكنها دول محكوم عليها بمأساة متنامية بفعل الخضوع
متنامى.

**«المعونة» المزعومة لدول العالم الثالث هى أحد العوامل الأكثر
مالية لتقوية خضوع هذه الدول ولتأخرها.**

حددت «المعونة» العامة، المتعددة الأطراف بأقل من ١٪ (٧,٪) من الناتج القومي الصافي لـ «المانحين». في الحقيقة، لا يتم صرف إلا أقل من النصف.

«المعونة» المزعومة، المالية والتكنولوچية للدول «النامية» من خلال الاستثمارات، لم تحقق أي تنمية أخرى غير تلك الخاصة بالشركات متعددة الجنسيات المغروسة في هذه الدول حيث الأيدي العاملة الرخيصة. سمحت هذه المعونة أيضا للشركات الغربية بالحصول على مكاسب أعلى بكثير من التي تحصل عليها في بلادها. النتائج هنا هي: تنمية زراعة أحادية وإنتاج أحادي، تراجع الزراعة القومية والحرف الوطنية الأصلية، خضوع، استغلال متزايد للأيدي العاملة، تفاقم للدين بفعل تزايد الواردات.

النتيجة النهائية حاسمة: انخفض دخل الفرد بنسبة ١٥٪ في أمريكا اللاتينية، و ٢٠٪ في إفريقيا منذ بداية الثمانينيات.

٢ـ آلية تسخير العالم الثالث لمصالح الغرب. ويقوم بها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. أنشأتهما وتسيطر عليهما الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون عن طريق تقديم قروض للدول التي تمر بصعوبات معينة تحت شروط سياسية، واجتماعية، واقتصادية، ومالية تسمى بحياء «برامج الإصلاح» أو «خطط الإصلاح البنيوي».

يتكون برنامج الإصلاح* في الغالب من العناصر الآتية:

---

* تتمسك الولايات المتحدة والغرب بيلتسين رئيسًا لروسيا حتى يستمر ـ حسب ما يقولون ـ في برامج الإصلاح الاقتصادي والسياسي. ذلك الإصلاح الذي أفلح =

- خفض سعر العملة (بهدف تشجيع الصادرات وخفض الواردات).

- تخفيضات هائلة للنفقات العامة وبصفة خاصة على المستوى الاجتماعى: خفض اعتمادات التعليم، الصحة، الإسكان، وإلغاء الدعم بما فيه الدعم الغذائى.

- خصخصة الشركات العامة أو رفع أسعارها (الكهرباء، الماء، المواصلات... إلخ).

- إلغاء التحكم فى الأسعار.

- زيادة الضرائب ومعدلات الفائدة، كل ذلك بهدف خفض معدل التضخم.

تحكم هذه «الليبرالية» الدول النامية بشكل أفضل من الاحتلال العسكرى أو الديكتاتوريات العسكرية.

كتبت سوزان چورچ: «ليس أفضل من ذلك سوى ديكتاتورية عسكرية تجعل الدولة تنزف حتى النهاية».

تحتفظ شيلى بالرقم القياسى: ١٥٤٠ دولارا ديونا لكل مواطن.

دفعت الشعوب نيابة عن چنرالاتهم وكولونيلاتهم ثمن الأتعاب

= بنجاح منقطع النظير فى تحويل روسيا العظمى إلى دولة تشحذ مرتبات موظفيها، وذلك الإصلاح السياسى الذى يقوده يلتسين رغم أنه لم تقم مظاهرات فى أى دولة فى العالم، فى تاريخه كله القديم والحديث، ضد رئيس كما قامت ضد يلتسين.

القاتلة التى تمكنهم من الحفاظ على «النظام» فى خدمة أسيادهم الأجانب . اليوم تخدم القروض الجديدة بصفة خاصة تسديد فوائد الديون القديمة .

تؤدى هذه السياسة «للإصلاح» إلى اندلاع مظاهرات للجوع ضد ارتفاع الأسعار : فى المغرب عام ١٩٨١ وفى عام ١٩٨٤ . وفى كراكاس عام ١٩٨٥ ومارس عام ١٩٨٩ . وفي الجزائر فى أكتوبر عام ١٩٨٨* .

من أجل دفع الدين بالدولار . . . تنتج البلاد المُعانة كثيرا مما لا تستهلكه ، وتستهلك كثيرا مما لا تنتجه ! !

هكذا يخرب كل من البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى نصف الكرة الأرضية الجنوبى منذ عشرين عاما ، من الأرجنتين إلى تانزانيا ، ومن پاكستان إلى الفلپين ، وبدءوا الآن فى تطبيق نفس الأسلوب فى دول الشرق .

* * *

أسفرت حرية السوق عن شهرة خاصة بها ، هى تهريب المخدرات .

كان استهلاك الكوكايين فى الولايات المتحدة ٨٥ طنا فى عام ١٩٨٤ ، ١٢٥ طنا فى عام ١٩٨٥ ، ٢٥٠ طنا فى عام ١٩٨٦ . الآن

* وفى إندونيسيا عام ١٩٩٨ (المترجمة) .

وبوجود ٢٠ مليون مدمن مخدرات بها تستوعب الولايات المتحدة ٨٠٪ من المبيعات العالمية من المخدرات .

أكدت نتائج دراسات البروفيسير راينج ، الاقتصادى فى جامعة هارڤارد ، أن المخدرات فى الولايات المتحدة أصبحت واحدة من القطاعات المهمة فى الاقتصاد ، على نفس مستوى الإلكترونيات ، والسيارات أو الصلب* .

بلغة السوق ، فى مواجهة مثل هذه الزيادة فى «الطلب» ، ارتفع «العرض» البوليڤى بنفس النسب : كانت بوليڤيا تنتج ٦ آلاف طن من أوراق الكوكا فى عام ١٩٧٠ ، تخطت ١٥٠ ألف طن فى عام ١٩٨٦ .

هناك ٦٠ ألف هكتار من أراضى بوليڤيا مزروعة بنبات الكوكا ؛ ينتج كل هكتار سنويا ثلاث غلات تعطى لمالكها عشرة آلاف دولار . هذا ، بينما يكسب عامل المناجم فى بوليڤيا ٨٢٧ دولارا سنويا ، والعامل فى المصانع ٦٤٩ دولارا ، والفلاح الذى لا ينتج الكوكا ١٦٠ دولارا سنويا . يتحول الفلاح الأكثر فقرا بين الفلاحين فى كولومبيا من إنتاج البن أو الكاكاو إلى إنتاج الكوكا ، مطيعا لنفس منطق بورصة وول ستريت ومنطق السوق .

إذا ما استمرت السوق وحريتها المتألقة هى الحكم الوحيد ، فستضمن المخدرات مستقبلا مزدهرا .

---

* جاء ذلك فى جريدة چنيف ، ٩ من فبراير عام ١٩٩٠ .

كرست حرب الخليج هيمنة الولايات المتحدة على العالم، وفرضها مبادلات تجارية غير متكافئة، بالإضافة لـ «سياسيات الإصلاح»!

نشرت جريدة لوموند فى ١٠ من سبتمبر عام ١٩٩١، مقالة تحت عنوان «الولايات المتحدة تعنى دائما بأمريكا اللاتينية»، ذكَّرت فيها بمبادرة بوش الشهيرة : «مبادرة من أجل الأمريكتين» التى أعلنها فى ٢٧ من يونيو عام ١٩٩١، وهى خطته لسوق قارى كبير «من آلاسكا إلى أرض النار»، وإجبار دول الأمريكتين على الدخول فيه عن طريق الابتزاز بالديون. وكانت شيلى قد حصلت مسبقا كثمن لوداعتها فى ١٩ من يونيو عام ١٩٩١ على قرض قيمته ١٥٠ مليون دولار. وحققت بوليفيا فائدة فى ٢٢ من أغسطس بتأجيل دين بلغت قيمته ٣٤١ مليون دولار.

أعلن رئيس كولومبيا بنفسه أمام اجتماع « مجموعة ريو» المكونة من تسع عشرة دولة لاتينية ـ أمريكية فى أكتوبر الماضى : « **نحن نعرف**

جميعا أن الشقيق الأكبر فى الشمال يعمل على تنظيم سوق كبيرة وعلى التحكم فيها لصالحه» .

كانت الساحة خالية، بعد تدمير العراق، من أجل انتشار جديد دائم لـ «المجموعة العسكرية الصناعية الأمريكية» فى الشرقين الأدنى والأوسط .

أعلن چيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكى أمام لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس، بأن الوجود العسكرى الأمريكى الدائم فى المنطقة (السعودية - الكويت - الإمارات) منذ بداية أزمة الخليج سيكون أمرا ضروريا . وهو ما تم بالفعل . وتم إنشاء قواعد جوية ذات صفة دائمة فى هذه المناطق .

فى أمريكا اللاتينية، تلقت الأرچنتين أمرا بوقف برنامجها لإنتاج الصاروخ «كوندور»، وباشرت فى الحال عمليات تفكيكه . فى آسيا، أنذرت پاكستان رسميا بالعدول عن تسليحها النووى، تحت تهديد التعرض للعقوبات الاقتصادية . وفى ٢٦ من يوليو عام ١٩٩١، أخطرت الولايات المتحدة كلا من ألمانيا، وإسپانيا، وفرنسا والمملكة المتحدة باعتراضها على بيع سبع طائرات إيرباص إلى پاكستان . لم يتضمن اتفاق التجارة مع الصين بيع التكنولوچيا المتقدمة انتقاما منها لتوريدها الأسلحة لپاكستان . فى بورما، فوجئت الحكومة الأمريكية على حين غفلة بأن حكومتها ديكتاتورية عسكرية . وبمقتضى «حق التدخل» - وهو الاسم الجديد لحق التدخل الاستعمارى بدعوى العمل «الإنسانى الحضارى» - مارست

ضغوطا أضرت بالشعوب الأخرى فى آسيا . احتجت كل من إندونيسيا ، ماليزيا ، الفلبين ، سنغافورة وتايلاند ، على الحق الذى يستأثر به الغربيون ، وبخاصة الأمريكيون ، فى تعيين ما هو الخير وما هو الشر ! وعلى فرض « أنظمة لا تتفق قيمها مع هذه المنطقة من العالم »* .

أعلن السيد هيرمان كوهين وزير الدولة الأمريكى للشئون الإفريقية فى ١٠ من سبتمبر ، أثناء زيارة الرئيس السنغالى عبده ضيوف للولايات المتحدة ، أن مهلة الثلاثين عاما التى قررتها منظمة الوحدة الإفريقية من أجل تكامل الاقتصاديات الإفريقية طويلة جدا . قال : «نحن نعتقد أن إزالة الحواجز التجارية الإفريقية لابد أن تتم بسرعة جدا » . بعد أن أبدى الرئيس عبده ضيوف تفهمه للفكرة ، أعلن الرئيس بوش إلغاء ديون السنغال لأمريكا .

بما أن الولايات المتحدة هى نفسها الدولة المدينة الأولى فى العالم - ٤٠٠٠ مليار دولار - فهى لا تستطيع أن تقوم بنفسها بالإقراض والاستثمار فى الاتحاد السوفيتى .

طلب جيمس بيكر من اليابانيين الاشتراك بكثافة فى هذه المهمة . رد اليابانيون : « ليس قبل أن تقوم روسيا بإعادة جزر الكوريل إلينا » . سرعان ما سافر بيكر إلى موسكو طالبا إعادة جزر الكوريل التى

---

* جريدة إنترناشيونال هيرالد تريبيون فى ٣٠ من مايو عام ١٩٩١ .

'ستولت عليها من اليابان كتعويض عن خسائر الحرب . أوشك
بلتسين على قبول هذه العملية .

* * *

المكاسب التى أدت إليها حرب الخليج ، سرعان ما تم تحويلها
لى رءوس أموال عن طريق إعادة الانتشار الجديد لـ «المجموعة
لعسكرية الصناعية » عبر العالم .

وأصبحت صناعة السلاح فى الولايات المتحدة تعيش عصرها
'لذهبى ، وانتشلت الاقتصاد الأمريكى كله من مشكلات العجز
ِ الركود* .

كشف هنرى مارتر ، المدير العام لوكالة الفضاء الأوربية ، فى ٢٦
ن يوليو عام ١٩٩١ فى جريدة لوموند ، عن أنه فى الولايات المتحدة
ا تم البدء فى برامج عسكرية ضخمة لصناعة الطائرات الحربية ،
حجم تمويل خرافى بلغ ١٥٠ مليار دولار» .

تم احترام طلبات السلاح فى اتجاه «الحلفاء» العرب الأغنياء ،
لأنه فى كل مرة كان يتم فيها توريد نوع من الأسلحة التقليدية إلى

---

* مثال نموذجى : تعد شركة جنرال إليكتريك فى الولايات المتحدة ، واحدة من الموردين الرئيسيين للأسلحة للجيش الأمريكى (قطع غيار لصواريخ باتريوت وتوما هوك وأيضا لطائرة الرادار أواكس . . .) . وهى مالكة شبكة التليفزيون NBC ، واحدة من أهم ثلاث شبكات تليفزيونية . وكان العرض التليفزيونى لحرب الخليج ، والتباهى بنجاح الصواريخ الأمريكية أفضل دعاية للشركة .

العرب - من أجل ازدهار صناعات التسليح الأمريكية - كان يتم مد إسرائيل بسلاح أكثر تقدما. ففى مقابل بيع المقاتلات الأمريكية للسعودية والكويت، قام ديك شينى بإمداد إسرائيل بعشر طائرات اعتراضية إضافية من طراز إف ١٥ إيجل، وهذه الطائرات قادرة على تدمير أقوى الطائرات فى القوات الجوية العربية.

هكذا، أثبتت حرب الخليج وما تلاها من سباق التسلح الجديد فى الشرق الأوسط، أن «الحق» الدولى الوحيد هو «حق الأقوى».

إسرائيل هى المفوضة بهذا الحق، وهى تكمل بكل دقة المهمة التى أوكلها إليها مؤسسها الروحى تيودور هرتزل: **«سنكون بالنسبة لأوربا المتراس فى مواجهة آسيا، وسنكون الحرس المتقدم للحضارة ضد البربرية»**.

تم تنفيذ هذا البرنامج جيدا، بما أن الغرب سمح لإسرائيل بكل الانتهاكات للحقوق الدولية. دولة إسرائيل هى الوحيدة التى قُبلت فى الأمم المتحدة تحت شرط: عدم المساس بوضع القدس، والسماح للعرب الفلسطينيين بالعودة إلى أرضهم، واحترام الحدود الراسخة.

اُعتبرت كل هذا الالتزامات وكأنها «قصاصة ورق» * . سمح بكل

---

* صرح بهذا، وتصرف على هذا المفهوم كل قادة إسرائيل.

شىء إلى إسرائيل بصفة كونها شرطى الشرق الأوسط . أعطيت لها كل الوسائل من أجل القيام بهذا الدور بكفاءة .

مجلة كيفونيم (اتجاهات) ، وتنشرها المنظمة الصهيونية الدولية فى القدس ، نشرت فى عددها رقم ١٤ فبراير عام ١٩٨٢ ، عام غزو لبنان ، مقالة عن «خطط إسرائيل الإستراتيچية فى عقد الثمانينيات» . ومما جاء فيها :

«لقد غدت مصر ، باعتبارها كيانًا مركزيا ، مجرد جثة هامدة ، لاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار المواجهات التى تزداد حدةً بين المسلمين والمسيحيين . وينبغى أن يكون تقسيم مصر إلى دويلات منفصلة جغرافيا هو هدفنا السياسى على الجبهة الغربية خلال سنوات التسعينيات .

وبمجرد أن تتفكك أوصال مصر وتتلاشى سلطتها المركزية ، فسوف تتفكك بالمثل بلدان أخرى مثل ليبيا والسودان وغيرهما من البلدان الأبعد . ومن ثم فإن تشكيل دولة قبطية فى صعيد مصر ، بالإضافة إلى كيانات إقليمية أصغر وأقل أهمية ، من شأنه أن يفتح الباب لتطور تاريخى لا مناص من تحقيقه على المدى البعيد ، وإن كانت معاهدة السلام قد أعاقته فى الوقت الراهن .

وبالرغم مما يبدو فى الظاهر ، فإن المشكلات فى الجبهة الغربية أقل من مثيلتها فى الجبهة الشرقية . وتعد تجزئة لبنان إلى خمس دويلات . . . بمثابة نموذج لما سيحدث فى العالم العربى بأسره .

وينبغى أن يكون تقسيم كل من العراق وسوريا إلى مناطق منفصلة على أساس عرقى أو دينى أحد الأهداف الأساسية لإسرائيل على المدى البعيد. والخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف هى تحطيم القدرة العسكرية لهذين البلدين.

فالبناء العرقى لسوريا يجعلها عرضة للتفكك، مما قد يؤدى إلى قيام دولة شيعية على طول الساحل، ودولة سنّية فى منطقة حلب، وأخرى فى دمشق، بالإضافة إلى كيان درزى قد ينشأ فى الجولان الخاضعة لنا، وقد يطمح هو الآخر إلى تشكيل دولة خاصة، ولن يكون ذلك على أى حال إلا إذا انضمت إليه منطقتا حوران وشمالى الأردن. ويمكن لمثل هذه الدولة، على المدى البعيد، أن تكون ضمانةً للسلام والأمن فى المنطقة. وتحقيق هذا الهدف فى متناول يدنا.

أما العراق، ذلك البلد الغنى بموارده النفطية والذى تتنازعه الصراعات الداخلية، فهو يقع على خط المواجهة مع إسرائيل. ويُعد تفكيكه أمرًا مهما بالنسبة لإسرائيل، بل إنه أكثر أهمية من تفكيك سوريا، لأن العراق يمثل على المدى القريب أخطر تهديد لإسرائيل».

طالبت إسرائيل الولايات المتحدة تحت عباءة الأمم المتحدة بتفتيش العراق من أجل تدمير منشآته النووية، حتى السلمية منها، لكن لم تطالب إسرائيل بذلك وهى التى ضمت القدس والجولان*.

---

* ومازال التفتيش مستمرًا لسبع سنوات!

فى الوقت الذى رفض فيه المجتمع الدولى ممثلا فى الأمم
تحدة بالإجماع ، الاعتراف بقيام إسرائيل بضم القدس الشرقية ،
ببرت إسرائيل هذا الضم من جانب واحد «أبديا» ، ولم تعترض
وى الغربية على ادعاءات إسرائيل بمنع أى ممثل فلسطينى من
.س الشرقية من الاشتراك فى المؤتمر الدولى .

* * *

حدد حلف شمال الأطلنطى بداية من ٢٩ من مايو عام
١٩ ، إستراتيچية عسكرية جديدة بعد تفكك الاتحاد السوڤيتى
بدم الاستقرار فى الشرق» .

سيطر على التوجه الجديد لهذه الإستراتيچية فكرة أن حرب
لميج أظهرت أن « الخطر يمكن أن يأتى من جهة أخرى» .

حدد چيمس بيكر النقاط الخمس التى تحدد السلوك
يم ، وذلك فى رسالة إلى مؤتمر «الآخر والتعاون الأوربى» فى ١١
سبتمبر عام ١٩٩١ . والحقيقة أنه يمكن أن تختصر النقاط
مس إلى نقطتين :

.اقتصاد السوق المفتوح دون عوائق أمام الولايات المتحدة .

.نظام برلمانى على الطريقة الأمريكية .

وربا كلها ، باستثناء ألمانيا ، فى طريقها إلى أن تصبح فى توصيف
لايات المتحدة مثل جمهوريات الموز فى الكاريبى ، أو كمملكة

بترولية فى الخليج . المهم أن تظل مفتوحة للتجارة الأمريكية لاستيراد ما يفيض عنها ، بداية من الصويا إلى الأفلام ، وأن تظل داخل حلف شمال الأطلنطى .

* * *

تنطوى كل محاولة للهيمنة فى عصرنا على التحكم فى مصادر البترول عصب «النمو» فى النموذج الغربى .

كانت إنجلترا الأولى التى تضع يدها على آبار البترول فى الشرق الأوسط ، بصفة خاصة فى إيران والعراق . وذلك فى زمن قوتها فى بداية هذا القرن ، وعندما تحول أسطولها الحربى من استخدام الفحم إلى استخدام المازوت .

الولايات المتحدة أيضا ، وحتى قبل أن تحمل راية القيادة الدولية ، كانت تضمن السيطرة على بترول المكسيك ، بعد أن أبعدت الرئيس كارديناس الذى سبق وقام بتأميمه ، وعلى بترول ڤنزويلا عن طريق تأييد الحكومات المخلصة لها .

عندما أراد الچنرال قاسم فى العراق فى عام ١٩٦١ تأميم البترول ، أدى تدخل عسكرى بريطانى إلى قلب نظام حكم قاسم واغتياله . منذ ذلك الوقت ، سيطرت الولايات المتحدة على دفة قيادة العالم الغربى .

عندما أراد الرئيس مصدق فى إيران أن يؤمم البترول ، أقامت

الولايات المتحدة أولى مشروعاتها للتدخل العسكرى فى الخليج، لكنها حققت هدفها بوسائل أخرى: تم قلب نظام حكم مصدق، وتم سجنه، وأعيد شاه إيران الهارب، وأجلس على كرسى العرش ليصبح شرطى الشرق الأوسط وآبار بتروله. عندما قامت الثورة الإيرانية على الشاه، دفعت الولايات المتحدة العراق إلى الهجوم على إيران بعد أن اقنعوا صداما بأنه بعد نظام الشاه لم يعد فى طهران لا دولة ولا جيش.

أنهكت الحرب الطويلة جيش وشعب واقتصاد إيران، وتكدس السلاح فى العراق. وبعد انتهاء حرب العراق/ إيران، جعلت الولايات المتحدة العراق يعتقد أنها لا تعنى بمشروعاته لضم الكويت. سقط صدام فى الفخ، معطيا الولايات المتحدة الذريعة المثالية لتحقق على نطاق واسع ليس له سابقة، الخطة العسكرية التى رتبتها من قبل فى عام ١٩٥٣ ضد مصدق. أسفرت هذه الحرب عن وجود عسكرى دائم للولايات المتحدة فى الخليج.

حقيقة أن عملية «تحرير الكويت» لم تكن سوى ذريعة، أصبحت جلية بعد إعادة الأسرة الحاكمة إلى العرش فى الكويت. أعلن الرئيس بوش بعدها بصراحة فى الأمم المتحدة ضرورة الإبقاء على الحظر حتى يترك صدام حسين السلطة. لأول مرة، تعترف إحدى الدول بوضوح أنها ستجوع شعبا حتى يأتى بحكومة توافق عليها!.

فى الوقت الراهن، لم يعد هناك سوى حقلين رئيسيين للبترول فى العالم مازالا بعيدين عن السيطرة الأمريكية، ليبيا وإيران.

اقتضى الأمر فى البداية تكرار الخطة العراقية فى مواجهة ليبيا. مرة أخرى كان يجب إيجاد ذريعة! . **فى عام ١٩٨٦، حدث انفجار فى ملهى ليلى فى برلين أسفر عن مقتل جنود أمريكيين، ووقع هجوم آخر فى مطار روما. كان هذان الحدثان كافيين لتوجيه الاتهام إلى ليبيا. فتم الإغارة عليها. حاولوا اغتيال القذافى عن طريق تدمير منزله. أسفرت الغارة عن ٥٠ قتيلا فى طرابلس. واتضح بعد تحقيقات السلطات الألمانية والإيطالية، وعرف العالم كله، أن ليبيا بعيدة تماما عن هجمات روما وبرلين.**

الآن، ومن أجل الوصول إلى نفس الهدف، وبعد تبرئة سوريا مما نسب إليها من اتهام بتدمير طائرة پان أمريكان وطائرة UTA، وذلك مكافأة لها على الاشتراك فى عملية الخليج، أصبحت ليبيا متهمة من جديد! أخطرت رسميا بتسليم اثنين من مواطنيها «المشتبه فيهما» بأنهما المسئولان عن إسقاط الطائرتين. وذلك على خلاف القاعدة الأساسية للعدالة التى تؤكد أن كل متهم يعتبر بريئا حتى تثبت إدانته. يعادل «الاشتباه» الأمريكى الإدانة تماما من الآن فصاعدا*.

تخطت الولايات المتحدة الإجراءات الشرعية، وعن طريق أسلوب لم يستخدم من قبل فى الأمم المتحدة منذ إنشائها، حصلت

---

* أصدرت محكمة العدل الدولية حكمها فى ربيع عام ١٩٩٨ بأنها مختصة بنظر القضية، ومع هذا لم تتنازل الولايات المتحدة عن طلبها تسليم المواطنين الليبيين، ولم تتنازل عن حصار ليبيا.

من مجلس الأمن على إنذار نهائى*، وذلك بالرغم من ميثاق الأمم المتحدة ومعاهدة مونتريال لتسليم المجرمين (١٩٧١)، التى تقضى فى الحالات المماثلة باللجوء إلى التحكيم، وكوسيلة نهائية إلى محكمة العدل الدولية فى لاهاى. قبلت ليبيا الخضوع لهذه الشرعية الدولية. ورفضت الولايات المتحدة الدعوة التى وجهتها لها ليبيا باستعدادها لقبول محققين قضائيين أمريكيين وبريطانيين وفرنسيين، بهدف متابعة تحقيقاتهم فى ليبيا إلى جانب زملائهم الليبيين واستجواب المتهمين.

نفس سيناريو الخليج المتداخل، حظر، ثم اللجوء إلى المذبحة بدعوى أن الحظر غير فعال، ثم الإبقاء على الحظر حتى يتم التخلص مرة أخرى، من قائد لا يحوز رضا الولايات المتحدة.

تهدد الغطرسة الأمريكية سيادة كل دول العالم، وإذا لم تأخذ الدول موقفا جماعيا إزاء ذلك، فسيكون عليها أن تخضع الواحدة تلو الأخرى لبطش الولايات المتحدة.

---

* إنذار: شروط نهائية تفرضها دولة على أخرى يؤدى عدم قبولها إلى الحرب. (المترجمة).

تفكيك الاتحاد السوفيتى

حاول أساتذة الفوضى عن طريق حشد إعلامى هائل، أن يطبعوا فى أذهاننا، أن السبيل الوحيد للهروب من النظم السياسية الاستبدادية، هو العودة إلى الغابة. إنها مرة أخرى محاولة لنسيان الماضى، «الفوضى الصناعية والتجارية»، كما قال فورييه، حيث أدى عدم المساواة ، والاستغلال، والعنف، إلى ميلاد الاشتراكية.

لم يكن ماركس هو الأول الذى أدان سلبيات رأس المال. استهجن جراكشو بابوف فى يونيو عام ١٧٩١ قانون شابوليه الذى حرَّم طوال ثلاثة أرباع قرن إنشاء النقابات العمالية، وذلك فى كتاب «القانون الهمجى الذى فرضه رأس المال».

فى عام ١٨٣٣ كتب پيير لورو، الذى أصبح فيما بعد القديس سيمونيان (كان ماركس حينذاك فى الخامسة عشرة): «الكفاح الحالى للبروليتاريا ضد البورجوازية هو كفاح هؤلاء الذين لا يملكون آلات الإنتاج ضد هؤلاء الذين يملكونها».

لم يكن ماركس هو الأول الذى فضح أكاذيب الحرية. كتب الأب لامونا فى عام ١٨٣٨ : «بين القوى والضعيف، إنها الحرية التى تقمع، والقانون الذى يحرر».

عبر عن نفس الفكرة أوجوست بلانكى فى اليوم التالى للسقوط الثانى للاشتراكية، ذلك الذى حدث فى مدينة پاريس : «يعتبون على الشيوعية أنها تضحى بالفرد وتنكر الحرية. باسم من هذا الافتراض المتغطرس؟ باسم النظام الفردى، الذى يغتال باستمرار منذ آلاف السنوات الحرية والفرد. كم عدد هؤلاء الأفراد فى جنسنا البشرى الذين لم يحولهم النظام الفردى إلى عبيد وضحايا؟ ربما واحد من كل عشرة آلاف؟ عشرة آلاف شهيد من أجل جلاد! عشرة آلاف عبد من أجل طاغية! ويترافعون من أجل الحرية! افهم: بعض الحيل المشئومة كامنة وراء التعريف، ألا يسمى حكم الأقلية بالديمقراطية، واليمين المزيف بالشرف، والاغتيال بالاعتدال؟!».

يفعلون من جديد ما فعلوه (من تزييف) من قبل. يتكلمون عن «ثورة روسيا فى ١٩ من أغسطس عام ١٩٩١». وفى عام ١٩٩١ بهدف دفن بريسترويكا جورباتشوف ودفن الاشتراكية أيضا.

لا، لم تبدأ هذه القصة بهذه الطريقة.

ولدت الاشتراكية تاريخيا فى القرن التاسع عشر، فى كل المجتمعات التى استبدل فيها بطبقات العائلات الإقطاعية طبقات أصحاب الأموال. أصبح اقتصاد السوق المنظم الوحيد للعلاقات الإنسانية. نشبت غابة يفترس الأقوى فيها الأضعف.

من هنا جاءت فكرة علاقات اقتصادية واجتماعية أخرى، ملخصها: «توفير الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية للتنمية الكاملة لكل القدرات الإنسانية الكامنة فى كل إنسان، بهدف أن يستطيع كل طفل يحمل فى داخله عبقرية موزارت أن يصبح موزارت». ذلك كان تعريف الاشتراكية بأهدافها، حسب قول ماركس، اشتراكية آلات الإنتاج لم تكن سوى وسيلة.

تجعل تلك العلاقات من الاقتصاد وسيلة لا غاية. ولكن يحبط منطق السوق ذلك المفهوم، على حساب إنسانية الإنسان.

لم يختزل ماركس حركة التاريخ فى الاقتصاد، الذى هو بالفعل فى الرأسمالية بمثابة المحرك! عندما ادعى صهره بول لا فارج تلخيص فكرة ماركس فى كتاب يحمل عنوان «الحتمية الاقتصادية»، أجاب ماركس: «إذا كانت هذه هى الماركسية، فأنا ماركس لست ماركسيا!».

يتطلب تجاوز تناقضات الرأسمالية، التخلى عن حتمية جنون وعبودية الاقتصاد الحر. يعنى ذلك أن الثورة على الظلم الاجتماعى تحتاج إلى السمو أكثر من الحتمية.

سبّب الدور الاجتماعى والسياسى لعلماء اللاهوت المنافقين فى عصر ماركس، أن يتهمهم بترويج الأفيون للشعوب.

أثر ذلك سلبا على كل تاريخ الاشتراكية، وفى أعمال خلفاء ماركس، الذين كانوا يرددون كلام ماركس دون استلهام منهاجه.

جعلوا فى بعض الأحيان من الإلحاد مكونا أساسيا للاشتراكية، مما حرمها دائما من بعدها الخاص بالبحث فيما وراء المادة لصالح تسميتها بـ «الاشتراكية العلمية»، متناسين أن الثورة يمكن أن تكون علمية فى وسائلها، لكن لا يمكن لأى علم أن يمنحنا أهدافا نهائية.

فى دولة مثل روسيا فى عام ١٩١٧، وكانت اقتصاديا متخلفة بمسافة هائلة من الدول الرأسمالية المتقدمة مثل بريطانيا، تداخلت مشكلات تطبيق الاشتراكية مع ضروريات التنمية.

لم تفشل محاولة اشتراكية الدولة فى روسيا بسبب اقتصادها المتخلف فقط، ولا بسبب الظروف الدولية المعادية فقط، ولكن أيضا لأن مفهومها الخاطئ عن الاشتراكية، قام على المفاهيم الإنتاجية للغرب منذ عصر النهضة.

وما هو أسوأ فى تطور هذه الاشتراكية، هو استدانتها من فروض أولية معتمدة على قاعدة رأسمالية، وعلى المعتقد الغربى فى وجود نموذج وحيد للتنمية يعتمد كثيرا على الكم الذى تضمنته تكنولوچيا الغرب.

قدم النظام الجديد فى روسيا بسرعة شديدة ثلاثة تحريفات أساسية:

- صاغ ماركس قوانين النمو من أكثر النظم الرأسمالية تقدما فى عصره، الرأسمالية الإنجليزية، عن طريق إقامة علاقة جبرية بين الاستثمارات الموجهة إلى وسائل الإنتاج، وتلك المخصصة للسلع

الاستهلاكية، النظرية الوحيدة للنمو، التى عاشت أكثر من قرن، نقلا عن صامويلسون.

جعل المريدون العقائديون من هذا القانون الوصفى لتطور الرأسمالية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر قانونا مرجعيا لتطور الاشتراكية الروسية فى القرن العشرين. منع هذا الخطأ القاتل - منذ ذلك الوقت فصاعدا - التفكير فى الاشتراكية انطلاقا من أهدافها الأساسية، وهى اشتراك الشعب فى القرارات المتعلقة بمعنى وبتنظيم حياته، وأسفر عن مبدإ الأولوية المطلقة للصناعات الثقيلة، معيدين بذلك وحشية التصنيع التى سادت فى بداية القرن التاسع عشر فى إنجلترا وفرنسا.

فى ظل ظروف التخلف الاقتصادى لروسيا فى عام ١٩١٧، ثم إعادة البناء بعد دمار الحرب العالمية الثانية، يمكن أن يبدو شرط أولوية النمو الصناعى كضرورة تاريخية حتى لا تُسحق روسيا من القوى الاقتصادية المحيطة بها.

لا يبدو الخراب الإنسانى جليا إلا بعد الانطلاق الصناعى عام ١٩٣٧، لكن تم حجبه أمام بوادر الحرب العالمية الثانية، ولم تظهر الثورات الأولى فى المجر ثم فى تشيكوسلوفاكيا بصفة خاصة، إلا بعد إعادة البناء، على تلك المفاهيم الخاطئة.

- انطوى التحريف الثانى على الخلط بين الاشتراكية والتأميم. سخر ماركس من قبل من هؤلاء الذين عرفوا الاشتراكية بالتأميم. قال

ماركس : «سيصبح بسمارك أكبر اشتراكى فى أوربا ، بما أنه أمم مكاتب البريد!» .

وصف لينين فى آخر مقالة له فى جريدة البراقد حول «الحركة التعاونية» المشتركة (إضفاء الطابع الاشتراكى) بأنها مثل إنشاء شبكة من التعاونيات ذاتية الإدارة .

عندما فرض ستالين تأميم القطاع الزراعى ، وبأسلوب تسلطى متسرع ، سدد ضربة قاصمة لذلك القطاع ، لم يفق منها حتى اليوم .

استيلاء الدولة على وسائل الإنتاج ، فى دولة رأسمالية متخلفة ـ لم تكن طبقة العمال تشكل فى عام ١٩١٧ سوى ٣٪ من الأيدى العاملة ـ أدى إلى نوع من التصنيع ، لكن يأتى «من أعلى» بدلا من أن يقوم على تعاونيات ذاتية الإدارة من الشعب . بدلا من أن تكون «الخطة» وسيلة لتهذيب الاقتصاد لتوجيه الإنتاج لخدمة الحاجات الإنسانية ، أصبحت المؤسسات الصناعية للدولة طبقة تدار بطريقة شبه عسكرية ، دون «مشاركة» من القاعدة ، حيث احتفظ التكنوقراطيون ، والبيروقراطيون ، وأعضاء جهاز الحزب بكل السلطات ، واتخذوا القرارات نيابة عن الجميع ، الذين لم يستشاروا ، أو بطريقة شكلية محضة ، دون تأثير على الإدارات المركزية .

هذا التصور لدور الدولة يتناقض تماما مع تصور ماركس . أعطى ماركس كمثال لدولة اشتراكية بلدية * باريس ، وهى على النقيض تماما

---

* بلدية : كومونا ـ باللغة اللاتينية ـ أصغر وحدة فى التقسيم الإدارى يتمتع سكانها بالحق فى حكم أنفسهم بأنفسهم . (المترجمة) .

مع الدولة السوفيتية . كانت البلدية ، في وجهة نظر ماركس ، وعلى شكل مصغر ، تدار ذاتيا ، فيدرالية وليست مركزية ، ليس بها حزب وحيد : يحتفظ فيها أنصار برودون * بالأغلبية المطلقة لكن مع وجود لأنصار بلانكى** .

ـ اشتمل التحريف الكبير الثالث على خلط توجيه الدولة مع طريقة الإدارة من أعلى ، وتدخلها في الاستثمارات ، والأسعار ، ومعايير الإنتاج ، والتوزيع التجارى ، وتطورات السلطة ، كل ذلك من خلال بيروقراطية مركزية وأجهزة محلية معينة من القائمين على التخطيط .

قادت هذه التحريفات الثلاثة لاشتراكية ماركس ، الاقتصاد إلى الفوضى ، والحرية إلى الزنزانة .

أما فيما يتعلق بالانقلاب السياسى فى ١٩ من أغسطس عام ١٩٩١ ، فلنا الحق فى أن نسأل أنفسنا عدة أسئلة حول المعنى السياسى لهذا الانقلاب وحول مدبريه ، ذلك أنه حتى حماقته جاءت مثيرة للشك!

---

* بيير چوزيف برودون ، مُنظر اشتراكى فرنسى عاش فى الفترة من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨٦٥ . كان يحلم بمجتمع مشترك على المستوى الاقتصادى ، وفيدرالى على المستوى السياسى . (المترجمة) .

** أدولف بلانكى : ناشر واقتصادى فرنسى ، شقيق الثورى الاشتراكى لويس أوجست أحد زعماء ثورة عام ١٨٤٨ . أمضى بلانكى سنوات عديدة فى السجن . (المترجمة) .

كانت مجموعة المتآمرين على رأس قمة الدولة، وأيضا على كل أدواتها الضاغطة، مسيطرين على وزارات الدفاع والداخلية، وكل جهاز الحزب. والحال، أن من بين ١٨٠ فرقة كان الجيش السوفيتى يضمها، لم يتصل المتآمرون إلا بخمس عشرة منها، ولم يحركوا سوى خمس، مع أوامر بعدم إطلاق النار. فى نفس الوقت طلبوا من أحد المصانع ٢٥٠ ألف زوج من الأصفاد!! تماما مثل ما يحدث فى أكثر سيناريوهات هوليوود شططا. كانت دون شك كما قال ريجان إمبراطورية الشر!

على جانب وزارة الداخلية، لم يتم قطع أى مكالمة تليفونية داخلية أو خارجية سوى تلك الخاصة بجورباتشوف.

عاد بوريس يلتسين من إجازته قبل عدة ساعات من اندلاع الانقلاب السياسى. لم يتعرض له أحد لا فى المطار ولا فى منزله. ذهب إلى البرلمان الروسى، وأجرى محادثة تليفونية مع الرئيس بوش. حصل صديقاه عمدة موسكو وعمدة لينينجراد على نفس الامتياز.

واقفا على ظهر إحدى الدبابات التى أحاطت بالبرلمان، حيث استطاعت وكالات الأنباء العالمية تصويره، نادى يلتسين بإضراب عام لم يتبعه فيه أحد، وإلى مظاهرات لم تتخط العاصمة موسكو.

هكذا ولد بطل المقاومة!

المثير أيضا هو الترحيب الرسمى بالدوق فلاديمير الكبير فى سان بطرسبرج (الذى استعاد اسمه الألمانى) من قبل عمدة المدينة

الموالى ليلتسين فى ٧ من نوفمبر عام ١٩٩١ ، نفس يوم عيد ثورة أكتوبر . التقى يلتسين فى پاريس بوريث القياصرة الذى أكد تأييده الكامل له .

أعاد جورباتشوف التفكير في الاشتراكية انطلاقا من أهدافها * وبتغيير جوهرى فى الوسائل . لم يعن ذلك مجرد عملية ترميم أو تغيير بسيط فى البنيان ، كما توحى كلمة بريسترويكا . أترجم بريسترويكا بالأحرى إلى نهضة : مجتمع يعيد التفكير فى نفسه انطلاقا من مبادئه .

أتاح هذا الانفتاح ثورة شعوب بأكملها فى پولندا ، فى المجر ، فى ألمانيا الشرقية ، فى تشيكوسلوڤاكيا . التطفل كان حتميا على مثل هذه الحركة الواسعة من أجل اشتراكية ذات وجه إنسانى ، وذلك من قِبَل من يصطادون فى الماء العكر أو من المحرضين ، لكن يظل المعَنى العميق واضحا : شن جورباتشوف ثورة ضد التحريفات الثلاثة للاشتراكية .

ثم فشل جورباتشوف .

لا يجب أن يقودنا هذا الفشل الصريح الحالى إلى أن ننسب الكمال لغابة السوق . هناك فى عالم «اقتصاد السوق» فى أوروپا سبعة عشر مليون عاطل ، و فى الولايات المتحدة عشرون مليون فقير .

كانت أولى تصريحات بوريس يلتسين ، والتى لم يُستشر فيها أحد ، مذهلة ، أيضا مقلقة للجمهوريات الأخرى ومزعجة لشركائه

---

* انظر كتابه : بريسترويكا .

فى الخارج. أشار إلى أنه ستتم مراجعة حدود الجمهوريات، وسيجرى نقل كل الأسلحة النووية فى أوكرانيا إلى روسيا، وتعليق نشاط الحزب، وإلغاء ست جرائد!

بداية غريبة لنظام ديمقراطى!

انطلاقا من هنا، كان من الممكن تحقيق عدة أهداف أساسية. أولا: التخلص من بريسترويكا جورباتشوف، التى كانت تحاول منذ خمس سنوات (صحيح، بكثير من البطء والتذبذب) الفصل فى الاقتصاد بين السوق والخطة، بهدف إلغاء التخطيط المركزى، والاستبدادى، دون الوقوع فريسة فى غابة السوق.

تذكر الليبرالية المتوحشة بنظرية الثعلب الحر داخل حظيرة الدجاج الحر، واستئثار الأقلية بالثروة والسلطة.

اختار بوريس يلتسين اقتصاد السوق على الطريقة الأمريكية. تكشفت العملية المذهلة للبيع بأبخس الأسعار عن حجم خيانة الشعب.

إذا حكمنا من خلال السخرية اللامعقولة لمشروع «الانقلاب السياسى»، ومن خلال ضخامة نتائجه، إذا حكمنا من خلال المستفيدين من ذلك، فسيكون من الحق أن نسأل أنفسنا عما إذا كانت هذه مؤامرة حقيقية، أم مجرد مشهد مسرحى.

أيا كانت الإجابة عن سؤالنا، فالنتيجة هى: إحياء الرأسمالية. أقول إحياء الرأسمالية مثلما أطلق على حركة عام ١٨١٥ «إعادة الملكية».

ارتكبت الثورة الفرنسية جرائمها: أهوال چاكوب، فساد الترميدوريين، ديكتاتورية ناپليون، لكن الملكية العائدة إلى العرش لم تكتف بهدم تماثيل ناپليون وروبسپيير، لكنها هدمت أيضا تماثيل روسو، ڤولتير، ديدورو. كانت تريد أن تمحوهم من ذاكرة الفرنسيين مع كل المظاهر الإيجابية للثورة. وذلك مثل ما يحدث اليوم: **لا يكتفون بإسقاط تماثيل الانحطاط الستالينى، لكن أيضا إسقاط تماثيل مؤسسى الاشتراكية. يتصنعون نسيان العربدة القديمة للرأسمالية، طغيان قياصرة روسيا، التى كانوا يسمونها حينذاك «سجن الشعوب».**

من أجل القضاء على البريسترويكا التى كانت تحاول إصلاح الاشتراكية بمحاربة تحريفاتها، يحاولون إحياء الرأسمالية تحت اسم مستعار جديد: «اقتصاد السوق».

لم ير السياسيون ورجال الأعمال الغربيون فى انهيار الاتحاد السوڤيتى سوى كونه انفتاح سوق ضخم. إنه التفكير بأسلوب متخلف قرنا من الزمان، ودون الأخذ فى الحسبان فشلهم السابق، عندما اقتسمت وقسمت إنجلترا وفرنسا إمبراطورية الرجل المريض، فلم تتوقف الحروب والمذابح والمشكلات: فى العراق، وفلسطين، وسوريا، ولبنان، وصربيا وكرواتيا.

تضاعف الخطر اليوم، لضياع الفرصة التاريخية للتخلى التدريجى عن الأسلحة النووية، التى كان جورباتشوف قد نادى بها عندما كان على رأس السلطة.

أوروبا الشبح

لم تتوقف أوربا عن التأمرك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، في اقتصادها ، وتقاليدها السياسية ، وتأثرت كثيرا أساليب حياتها بفعل الإعلام الأمريكي الضخم . وظهر ذلك بوضوح في انتشار العنف والفساد .

يُولِّد اقتصاد السوق الخالي من الضوابط ، وحيث المال هو المحرك والهدف الوحيد ، الفساد والعنف * .

يُولد نظام مملكة المال ، الفساد ، وأيضا العنف : يُعتبر التفاوت الفظ في مدننا ، بين الثراء الفاحش من ناحية ، والبطالة والمستقبل الخالي من الأمل لملايين الشباب من ناحية أخرى ، منبعا لانفجارات العنف والتخريب : المظاهرات الشعبية ، سرقات السيارات ، الحرائق ، المحلات المنهوبة في إنجلترا في أكسفورد ، في برمنجهام ، في نيوكاسل .

* اقرأ : «نهاية الديمقراطية» ـ ماري جيهينو .

لن تُحل المشكلة بالردع الأمنى ، طالما ظل الأكثر حرمانا بدون عمل وبدون مستقبل . لدينا هنا فى ضواحينا ، نموذج مصغر لما يتفاقم فى العالم الثالث ، لنفس أسباب التناقض بين البذخ والتهميش .

يمكننا أن ننتظر نفس انفجارات اليأس ، نفس هوس التخريب ، طالما لم يتم إقامة قسمة أخرى - ليست استعمارية - للثروة والسلطة .

يجب البحث عن الأسباب العميقة التى تفسر الأحداث . بالنسبة لأوربا ، أصبح ضمان انتقال رءوس الأموال والثروات أهم مايجب تأمينه وضمانه ، ولو على حساب سيادة الدول وحدودها .

وهذا هو ما يجمع المجموعة الأوربية من روما إلى ماستريخت ، فيما وراء التناقضات الظاهرة بين الشركاء المتنوعين (بين إنجلترا والقارة مثلا) . الهدف النهائى مشترك : تخطى كل عقبة بالحركة الحرة لقوانين السوق ، بصفة خاصة الإجراءات الدولية .

يريد بعضهم أوربا موحدة قوية لأنها تهدم سلطات الدول ، التى تعتبر عقبات للمنافسة والسوق الحرة . يخشى البعض الآخر ، كما قال چون ميچور فى ماستريخت باسم إنجلترا : « أن يعرقل البرنامج الاجتماعى القدرة التنافسية » ،

تذرع هؤلاء الذين يدافعون عن هذا الرأى بالعبء الذى يمثله موظفو البيروقراطية وتزايد أعدادهم فى إدارات بروكسل .

ارتضى الآخرون هذا الفريق من التكنوقراط ورجال المال، حيث تستطيع جماعات الضغط المختلفة في الصناعة والأعمال الدولية أن تستقطبهم لمصالحها، وتتخلص بذلك من الرقابة المباشرة للحكومات وللبرلمانات وللمواطنين .

وينفرد السوق بالسيادة كما لو كان الإله الواحد الأحد . الصفة الجوهرية للمجموعة الأوربية هى أن ينتمى كل أعضائها إلى حلف الأطلنطى، المرجع الأساسى لأوربا، اختلطت كل الفروق .

أعطى چاك دولور التعبير الأكثر وضوحا : «هدف هؤلاء الذين يكافحون من أجل البناء الأوربى، هو أن تصبح المجموعة الأوربية ذات يوم ركيزة حلف الأطلنطى ». أما البريطانيون فقالوا : المجموعة الأوربية بمثابة «ذراع أوربية لحلف شمال الأطلنطى » .

أكد المتحدث الرسمى الفرنسى من ماستريخت : «المقصود هو تقوية شاملة لحلف الأطلنطى من خلال ذراعين اثنتين » .

يستجيب أولئك لأهداف الولايات المتحدة . نادى الرئيس ريجان فى حديث له فى ٨ من مايو عام ١٩٨٥ بـ « توسيع الاتحاد الأوربى حتى يصل من لشبونة إلى داخل الأراضى السوڤيتية » .

كتب چاك دولور بعد ذلك بست سنوات (مجلة إسبرى، نوفمبر عام ١٩٩١) : «إذا تمت الموافقة على المعاهدتين فى ماستريخت، فسينعكس فورا أثر تطبيقهما على ٣٥ دولة » .

هنأ بوش نفسه بالقرارات «التاريخية » التى اتخذتها قمة ماستريخت . « تعطى أوربا الأكثر وحدة للولايات المتحدة شريكا

أكثر فعالية، قادرا على تحمل أكبر المسئوليات ». أعلن بوش ذلك محذرا أوربا من الحمائية * (فكرة الحماية الاقتصادية) .

وضحت فكرة انحراف أوربا الأطلنطي على كل المستويات : من الاقتصاد إلى الدفاع إلى الدبلوماسية .

أُختير توقيت حرب الخليج بعناية لإجراء مفاوضات «الجات» (الاتفاقيات العامة حول الجمارك والاقتصاد)، قدس أقداس السوق العالمية، حين كان الأوربيون مصطفين على جانب الضروريات الأمريكية . فقدت هذه الاتفاقيات يوما بعد يوم أرضا لحساب الأمريكيين، مسببة خسارة كبيرة للزراعة الأوربية، خصوصا الفرنسية والإيطالية . المعارضة الأمريكية للمساعدات المالية للحماية فتحت أبواب أوربا أمام المنتجات الزراعية الأمريكية .

مثال آخر : حيث استخدمت المملكة المتحدة هذه المرة كحصان طروادة** للسياسة الأمريكية : منعت شركتان فرنسية وإيطالية من شراء شركة دى هاڤيلاند لصناعة الطائرات، بذريعة الدفاع عن المنافسة الحرة فى أوربا . أعاق المفتش البريطانى لورد

---

* الحمائية : مذهب حماية الزراعة أو التجارة أو الصناعة من المنافسة الأجنبية بفرض رسوم جمركية عالية على السلع المستوردة أو تحديد الاستيراد من ناحية المواصفات أو الكميات المسموح بها . (المترجمة) .

** حصان طروادة : جواد خشبى هائل اختبأ اليونانيون القدماء فى باطنه ليدخلوا مدينة طروادة، ثم احتلوها . يدل التعبير على العدو الداخلى (المترجمة) .

بريتان الشركات الأوروبية من تحقيق ما يَسمح لها بمواجهة المنافسة الأمريكية .

تخطط المملكة المتحدة للعب هذا الدور على المستوى النقدى . فحصولها على الإعفاء من الدخول فى الاتحاد النقدى لدائرة اليورو ، يتيح الفرصة لأن يستخدم الجنيه الإسترلينى كهمزة وصل بين اليورو والدولار .

أما عن اليورو فى حد ذاته ، فهو سيدخل فى فلك جاذبية المارك ، ستكون دائرة المشاركين فيه فى البداية مختارة بعناية . سيقبل فقط هؤلاء الذين يستجيبون لـ «معايير الاستقرار» التى حددتها بون . أكدت جريدة دى ڤيلت : «لن تتسامح ألمانيا مع أى مخالفة للمعايير الدقيقة للاستقرار التى يجب أن تمهد للسماح بالدخول فى الاتحاد النقدى» . الإنذار واضح : الفقراء غير مسموح لهم بالدخول حتى يوافقوا على هذه «المعايير» القريبة جدا مما يفرضه «صندوق النقد الدولى» على العالم الثالث : تخفيض الميزانية الاجتماعية إلى الحد الأدنى ، ضرائب قاسية ، إلخ . .

هكذا تقوم أوربا على درجتين من الدول . بالإضافة إلى ذلك فإنه فى هذه الأوربا يكسب العامل الألمانى خمس مرات ما يكسبه العامل البرتغالى أو اليونانى المثيل له فى الكفاءة - نقلا عن مدام سيمون فيل - ويُخشى بقوة أن يؤدى اجتذاب الدول الثرية للكفاءات والعقول (مثل مايحدث الآن مع دول العالم الثالث) إلى خلق عالم ثالث جديد داخل أوربا .

تلك هى النتائج التى ستعود على الشعوب، من إنشاء هذا التجمع الاقتصادى ذى الدرجتين .

كل النصوص التى اعتمدت فى ماستريخت، فى ١٠ من ديسمبر عام ١٩٩١ ، ليست سوى آمال. على سبيل المثال، لم تكتف بتخلية السياسة الاجتماعية فى المملكة المتحدة من كل التزامات، لكن مرّ الأهم فى صمت : سياسة الأجور، الضرائب، الأسعار. لم تتم الموافقة إلا على بندين : العملة الموحدة والدفاع .

استهدف حلف شمال الأطلنطى منذ عام ١٩٤٩ عدوا واضحا : الاتحاد السوفيتى. وكانت كل الأجهزة العسكرية فى أوربا وفى الولايات المتحدة فى خدمة هذا الهدف الوحيد المحدد .

بعد انهيار الاتحاد السوفيتى واختفاء حلف وارسو، تبحث الولايات المتحدة عن ابتكار تهديد جديد لتبرير الإبقاء على جهازها العسكرى، على وجودها فى أوربا، وعلى دورها القيادى .

سمحت حرب الخليج بالانفجار ضد شيطان جديد، ليس فى الشرق لكن فى الجنوب، حدث هذا بابتكار وحش عسكرى ، حتى قبل التدخل : المدفع العراقى العملاق، القادر على «إطلاق قذائف قطرها متر ويصل مداها إلى عدة مئات من الكيلومترات »، وهى المعلومة الغبية التى وشت بها مجلة علوم وحياة فى عددى يوليو عام١٩٩٠ ونوفمبر عام ١٩٩١ .

ترك هذا التغيير فى الأهداف هامشا كبيرا من الشك. حده الأعلى هو إعداد «قوات التدخل السريع » ـ لأى حادثة ـ مكان

توجهها مجهول، لايمكن معرفته، مجهزة حسب الحاجة، لمسرح عمليات عسكرية فى صحارى ليبيا أو فى ثلوج سيبيريا .

تعود نصوص ماستريخت إذن إلى حكمة السيد الأمريكى : اكتفت المادة الرابعة فى الفصل الخاص بالدفاع بشرح أن سياسة الاتحاد الأوربى «تحترم الالتزامات المتفرعة من اتفاق حلف شمال الأطلنطى، وأنها منسجمة مع سياسة الأمن والدفاع المقررة فى هذا الإطار».

يعتبر إعلان ال UEO (اتحاد أوربا الغربية) أكثر تعبيرا أيضا . فهو يذكر أنه «سيظل حلف الأطلنطى الساحة الأساسية للتشاور بين الحلفاء (. . .) بشأن التزاماتهم فى الأمن والدفاع طبقا لاتفاق واشنطن».

لايمكننا انتظار شىء آخر من «أوربا»، فهى تكتفى بالخدمة كجندى إضافى فى الجيش الأمريكى فى الخليج .

المُعطى الوحيد الثابت لفترة طويلة أخرى : ذلك الخاص بعدم الاستقرار المتنامى بين الشمال والجنوب، الذى يمضى على إثارة شبح «الغزو». ليس غزوا عسكريا لكنه غزو البؤس عن طريق الهجرة الكبيرة من المناطق التى ستصبح الحياة الاجتماعية فيها صعبة أكثر فأكثر، وهى التى هُدمت بنيتها ودُمرت بفعل قرون من الاستعمار، وبفعل المراكز الاستعمارية التى يمثلها صندوق النقد الدولى، أو البنك الدولى .

أوربا ذات الاثنتى عشرة دولة هى فى الواقع نادى قدامى المستعمرين. كلهم موجودون فيها : الرواد (البرتغال وإسبانيا)، والسادة القدامى للإمبراطوريات الكبيرة (بريطانيا العظمى، فرنسا، بلچيكا، هولندا)، وآخر القادمين (ألمانيا وإيطاليا).

كلهم باستثناء اليونان ولوكسمبورج. إنه لشىء ذو مغزى أن اتفاقيات ماستريخت لاتضم حتى كلمة واحدة حول المشكلة الأساسية للعلاقات مع الجنوب.

كتب السيد شيسون المفوض الأوربى لعلاقات الشمال والجنوب منذ عام ١٩٨٩ : «مصلحة قوى السوق اليوم لاتوجه الشركات الأوربية نحو العالم الثالث، أخشى [. . .] أن يؤدى الاستقطاب حول البناء الأوربى، أو اللعب الحر لقوى السوق إلى التجاهل العريض للعالم الثالث لفترة من الوقت».

لن تكون أوربا الموحدة خطوة فى اتجاه وحدة العالم. إنها ستضاعف الانقسام.

يؤدى هذا التوجه الأوربى إذن إلى تفاقم المشكلة الكبرى لعصرنا على المستوى العالمى : تفاقم التفاوت بين شمال وجنوب الكرة الأرضية.

الجـزء الثـانى

أعراض الانحطاط

ألا تجــازف الولايات المتـحـدة بإدخـال العـالـم إلى عـصـر الانحطاط، بسبب هيمنتها العالمية، ومحاولاتها من خلال سيطرتها لفرض نظام وحدانية السوق على العالم كله ؟

لايمكن أن يخضع مفهوم الانحطاط لأهوائنا الشخصية، فعندئذ سيـصـبح «مُنحطا» كل مـاهـو على عكس مـانعـتـقـده . فـعلى سـبـيل المثال، اعتبر شارل مورا الديمقراطية تجسيد الانحطاط .

لا يمكن أيضا تصور هذا المفهوم انطلاقا من التحليل العضوى لشيخوخة الجسد الإنسانى، أو بصورة أعم على طريقة مونتسكيو، فى أســبــابه التى أوردها عـن (انحطاط الرومـان) مـثـل تخلى أحـد المجتمعات عن المبادئ التى صنعت عظمته .

أكثر من ذلك، لايمكن تصور الانحطاط اعتمادا على مرجعية «العصور الذهبية القديمة» أو على أنه نقيض «للتقدم» .

ترتكز كل هذه التعريفات على فروض لايعتمد عليها فى تعريف التقدم والانحطاط .

الانحطاط هو قطع أواصر النسيج الاجتماعى، لتحويل المجتمع إلى ذرات، لتخريب العلاقات بين الجماعات القومية، الاجتماعية أو الدينية، وذلك عندما لاتعتبر وحدة العالم هدفا نهائيا وقاعدة كبرى .

يعنى الانحطاط على المستوى الفردى، الاهتمام بالنفس ورفض الآخر ورفض أى مسئولية تجاهه، وعلى مستوى الجماعات، هو النزوع إلى السيطرة .

عبادة السوق والملكية المطلقة للمال تقود مجتمعاتنا ـ كل مجتمعاتنا ـ إلى الانحطاط وإلى الموت .

أصبحت السيطرة العالمية التى تمارسها الولايات المتحدة شاملة بعد حرب الخليج، وأصبح مايحدث فى بقية العالم انعكاسا لحد ما لما يحدث فى الولايات المتحدة. وإذا استسلمنا لذلك، فسوف نتحرك جميعا تجاه عالم الفساد .

تمثل الولايات المتحدة كل أعراض الانحطاط، وبصورة أكثر عمقا من الانحطاط الرومانى، وذلك بقيامها بالآتى :

ـ تفكيك النسيج الاجتماعى من خلال تراجع المسئولية الجماعية لصالح الأنانية واللامبالاة .

ـ تفكيك المجتمع بسبب تزايد عدم المساواة، «التمييز العنصرى» الاقتصادى والثقافى .

ـ تفكيك مستقبل المجتمع، بسبب محاولة الاستفادة القصوى من الحاضر على حساب المستقبل، باستخدام الوسائل المتاحة دون الوعى بالأهداف النهائية الكبرى .

الغابة فى مواجهة الجماعة :

تتفكك الحضارة بتراجع المسئولية الجماعية وازدياد التفاوت بين الناس . كان التفاوت متفاقما فى عصر انحطاط أثينا ، وبصورة أكبر فى روما .

التعبير الحديث عن هذا التراجع فى الإخلاص للوطن أمام المصالح الخاصة ، هو عدم قدرة البلاد الأكثر ثراء فى العالم على خفض ديون الدولة : (٤٠٠٠ مليار دولار) * (ثلاث مرات أكثر من كل دول العالم مجتمعة) .

عدم القدرة أيضا على إقناع الشعب بدفع الضرائب ، وهو يعيش فى مستوى أعلى بكثير مما يملكه . خفضت كل حكومة أمريكية منذ ريجان من مساهمتها فى مجالات البرامج الاجتماعية والمصالح العامة .

المؤشر الثانى هو التهرب الضريبى ، الذى يقدر بخمس ما يجب تحصيله . ولننظر إلى قضاة أمريكا : ارتفع عدد القضاة المتهمين بالتهرب الضريبى والفساد منذ عشر سنوات فقط من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٠ ليتجاوز عددهم خلال الـ١٩٠ سنة الأولى من تاريخ الولايات المتحدة !

---

* تتمتع الولايات المتحدة بوضع استثنائى بين دول العالم ، فديونها تمثل نسبة عالية جدا وقريبة من إجمالى ناتجها ، ولا تنهار لأسباب خاصة جدا متنوعة . وبالطبع ، تحسن الوضع كثيرا بعد حرب الخليج .

ليس ذلك سوى أمراض اقتصاد السوق. امتصاص كل «القيم» وكل ماهو «اجتماعى»، وكل شىء يتم تسعيره وتقييمه حتى الجريمة. فالمال هو وقود كل حركة وهدفها، وعند هذا الحد قد تصبح الجريمة مفيدة. ظهر هذا على كل المستويات والمجالات حتى الدين. فقد صنع الإعلام من الدعاة نجوما تليفزيونية تتقاضى الملايين. فهنا حقا التجارة بالدين *.

واقعيا، أصبحت الحقوق الأساسية للمواطن، من تعليم وإسكان ورعاية صحية سلعا تخضع للسوق كأى سلع أخرى. كتب فرانسوا بيرو: «إنها قيم يجب ألا نسمح بانحدارها إلى أى سوق [. . .] عندما يسيطر على كبار الموظفين، الجنود، القضاة، رجال الدين، الفنانين، هذا التفكير (البحث عن الربح الأكبر) فإن المجتمع يتصدع [. .] تتحلل الرأسمالية **».

دخلت السياسة - التى من المفترض أن تنظم المدنية - إلى دوامة التسويق: كل عمل له ثمن *** حتى الحملات الانتخابية لأعضاء الكونجرس أو الرئاسة.

---

* تم ضبط الداعية والقس الشهير سواجارات متلبسا مع بعض الفتيات الصغيرات فى أحد الفنادق، مما أدى لامتناعه عن الدعوة التليفزيونية. ثم اكتشفت الشبكة حجم الخسارة الكبيرة لها من اختفائه، فعاد ثانيا. أما القس چيرى ڤالويل، فهو يطوف أمريكا بطائرته الخاصة للدعوة، وقابل نيتنياهو ونصحه بألا يتخلى عن بوصة واحدة من أرض إسرائيل حتى يهبط المسيح بسلام.

** الرأسمالية، مجموعة ماذا أعرف؟ PUF، ١٩٦٢.

*** بلغ متوسط ما أنفقه عضو مجلس الشيوخ الفائز ٤,٣ مليون دولار، ومتوسط ما أنفقه من خسر العضوية ٢ مليون دولار. أما الرئاسة، فالأرقام تتجاوز البليون.

تفاقــم التفاوت وعدم المساواة

يؤدى التفاقم فى التفاوت وعدم المساواة إلى انهيار المجتمع والحضارة . امتلك ستة من كبار الأثرياء الرومان نصف إفريقيا أيام نيرون ، وفى أيام قيصر ، كان هناك ثلث مليون رجل بدون عمل فى روما عاصمة الحضارة والإنسانية . ولذلك تصاعدت وتكررت ثورات العبيد .

هذا الاستقطاب المتنامى للثروة فى أيدى الأقلية الحاكمة ، وللبؤس فى القاعدة ، هو اليوم أحد الخصائص المهمة للمجتمع الأمريكى وللمجتمع الأوربى الذى فى طريقه إلى التحول للخط الأمريكى .

نقلا عن الأرقام الرسمية لمكتب الكونجرس للميزانية عن عقد الثمانينيات : «اتسعت الهوة بين الأمريكيين الأثرياء والفقراء خلال حقبة الثمانينيات ، إذ يحصل ٢,٥ مليون من الأثرياء على دخل مساوٍ لما يحصل عليه مائة المليون فى أسفل القائمة » .

ويتباعد طرفا سلم التعليم فى أمريكا، كما يتباعد طرفا السلم الاقتصادى . فهناك الجامعات ذات المصاريف الباهظة والتعليم العالى، يتكلف الطالب فيها من ٦٠ ألفا إلى مائة ألف جنيه سنويا، بينما يقبع فى القاع مايقارب ٢٥ مليون أمى، و٤٠٪ من طلبة الجامعة لايجيد القراءة الصحيحة، مما حدا بالمختصين فى حكومة ريجان إلى أن يعدوا تقريرهم الشهير «أمة فى خطر» بسبب سوء التعليم عند مقارنته باليابان وبعض دول أوربا .

فى مجال الصحة، تضم الولايات المتحدة مستشفيات، عيادات، مراكز أبحاث من ضمن أفضل المراكز فى العالم، لكن نظامها الصحى سيئ للغاية : تُصنَّف أمريكا فى المركز الثانى والعشرين على المستوى العالمى بالنسبة لوفيات الأطفال . يجىء حجم النفقات العامة على الصحة فى أقل المستويات بين دول الـ OCDE .

يتولد عن ذلك التفاوت الكبير فى مستويات الدخل، ومن ثم الصحة والتعليم والإسكان، عنف هائل فى نيويورك. نقلا عن إحصائيات الشرطة، هناك فى المتوسط جريمة قتل كل أربع ساعات، اغتصاب كل ثلاث ساعات، ويحدث هجوم كل ثلاثين ثانية. ولاتحتل نيويورك سوى المركز العاشر فى الجريمة بين المدن الأمريكية . فى الولايات المتحدة أكثر من مليون سجين، وأكثر من ٣ مليون عليهم أحكام بالرقابة .

تلك هى نتيجة اقتصاد السوق المتوحش، حيث تسود، كما كتب هوبز من قبل: « حرب الكل ضد الكل » . منطق سوق دون قيود، مع التنافس بين الأفراد والجماعات الذين لا يهدفون إلا إلى مصالحهم الخاصة، هو منطق الغابة .

التضحية بالمستقبل فى سبيل الحاضر

السبب الثالث للتدمير الاجتماعى - فى هذا الانحطاط - التضحية بالمستقبل من أجل الحاضر، وتتم التضحية بالحاضر فى سبيل أرباح البعض .

الهدف الرئيسى لما يُسمى بالسوق الحرة هو الربح، والربح من أجل الربح . وهذا هو النقيض التام لما جاء فى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»، وهو بالطبع النقيض التام لرسالة المسيح التى قامت على الزهد فى الدنيا ومحبة البشر ومحبة الله * .

ومادام الهدف الأول - إن لم يكن الوحيد - هو الربح، فلماذا لا تأخذ عمليات السمسرة ومضاربات البورصة والإقراض بالفائدة الصدارة، وتسبق كل عمليات الإنتاج؟ وتكتسب كل العمليات

---

* حتى إنه أمر من يريد اتباعه بأن يتبرع بأمواله أولا ثم يتبعه .
ويكفينا - فيما يخص الإسلام - أن نتذكر الآية التى تقول ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه**﴾ ٧ سورة الحديد .

طفيلية شرعيتها مادامت تحقق الربح، وتخلص العبادة للإله واحد الأحد : المال .

النتيجة الثانية لنظام اقتصاد السوق هى الفساد . صحيح أن الفساد ان موجودا دائما فى الأنظمة المختلفة، ولكنه كان مرضا، أما فى تصاد السوق فهو جزء من النظام، يمكن أن تصبح له شرعيته صورة أو أخرى .

ففى كل الأنظمة، الاستبداد بالسلطة يؤدى إلى سوء استخدامها، إلى استغلالها لمصالح شخصية . لكن هذا الفساد ليس شرطا أو يجة ضرورية لتشغيل النظام . فهو انحراف .

ولكن العكس من ذلك يحدث فى نظام اقتصادى يتحكم فيه سوق ويصبح هو الحكم الوحيد للعلاقات الاجتماعية ، يولد لائتمان بالفائدة المضاربة، وتولد المضاربة الفساد، الفساد فى قلب نطق النظام .

يلخص آلان جوتا، حجج هؤلاء الذين يدافعون عن «عقلانية فساد» *، ويذهب إلى حد اعتبار أنه « فى اقتصاد السوق، يلعب فساد فى مجمله دورا مناظرا للخطة» .

---

١) آلان جوتا : الرأسمالية فى كل أحوالها . دار نشر فايار، ١٩٩١ .

الثقافة المنفصلة عن البناء الاجتماعى، تتبخر كليا. فى أوربا، لعبت الثقافة والأيديولوچيات دائما دورا مهما فى الحياة السياسية، كمثال على ذلك، فى أوربا المسيحية ، فى عصر النور والثورة الفرنسية، قرون القوميات ـ والقومية ـ أو الماركسية وثورة أكتوبر .

فى أمريكا ـ فيما عدا المواطنين الأصليين الهنود حيث نظمت العلاقات الاجتماعية بينهم ثقافة عليا (مثل الحال عند الأنكا) ، لكنهم أبيدوا بنسبة ٨٠٪ من خلال المذبحة الكبرى، طردوا، هُمشوا، وأخيرا تم إدخالهم إلى المفردات*ـ فيما عدا هؤلاء فإن كل البشر الذين يعمرون الولايات المتحدة اليوم هم من المهاجرين.

أيا كانت ثقافتهم وأصلهم الأول، فإن أكثرهم جاء أساسا بحثا عن المال . كان لدى كل منهم دينه وثقافته، أيرلنديون أو إيطاليون، عبيد زنوج جُلبوا إلى أمريكا، مكسيكيون أو بورتوريكيون؛ لكن

* مفردة: أرض محجوزة فى بعض البلدان للسكان المحليين.

ليس هناك دين أو ثقافة مشتركة . الرابطة الوحيدة التى تجمعهم مشابهة لتلك التى تجمع الموظفين فى شركة .

الولايات المتحدة الأمريكية ، هى شركة للإنتاج يجمعها بصفة أساسية هدف واحد : الربح والمال. تعتبر كل هوية شخصية ، ثقافية ، فكرية أو دينية ، شيئا خاصا ، فرديا للغاية ، لا يتداخل مع سير النظام .

انطلاقا من مثل هذا البناء الاجتماعى ، الإيمان ، كمعنى للحياة ، لايمكن أن يعيش إلا داخل بعض الجماعات التى احتفظت بهوية ثقافتها القديمة ، أو عند بعض الأفراد الأبطال .

عند الغالبية العظمى من هذا الشعب ، مات الرب وهم لا يعلمون ، لأن الإنسان استغنى عن أبعاده الربانية : السمو والبحث عن المعنى . الساحة إذن خالية من أجل تكاثر الطوائف والخرافات ، بكل أنواعها ، وتظهر الدولة تسامحا خاصا إزاء كل ذلك .

كشف توكفيل الثاقب الفكر والمراقب الأول للولايات المتحدة عام ١٨٤٠ فى كتابه المشهور : «الديمقراطية فى أمريكا» عن الأساس لهذه الآلية : «لم أعرف شعبا يكن كل هذا الحب والولاء للمال» ، شعبا هو «جماعة من المغامرين والمضاربين » .

أكمل توكفيل : « يمكن لأمة ديمقراطية مماثلة للأمة الأمريكية أن تمهد الطريق للاستبداد والطغيان. سيصبح هذا الاستبدا د والطغيان

أكثر انتشارا وأكثر تركيزا [من الذى كان لأمراء أوربا]، يحط من قيمة البشر دون أن يؤلمهم» .

هذه الكلمات لمحلل خارق، تعود إلى مائة وخمسين عاما .

أصبح الإعلام، سوقا ضخمة، أكثر اتساعا أيضا من سوق الصناعة والمال، وهو ما أسماه آلان كوتا « الرأسمالية الإعلامية» ، مكملا «الثالوث المؤسس للتلاحم الاجتماعى » .

أصبحت «الحقيقة» سلعة تباع وتشترى، ويتم تكييفها طبقا للهدف المطلوب. يعتمد الإعلام من الآن فصاعدا على دعم الإعلان، الذى يتحكم فى تمويل البرامج واختيار مقدميها .

بالنسبة لكبار ملاك الصحافة، ماردوخ، ماكسويل، فى فرنسا هيرسان، الإعلام هو سوق مثل الأسواق الأخرى، والحقائق تباع مثل المنتجات الأخرى . أيضا، أكبر ثلاث وكالات غربية للصحافة، رويتر، أسوشيتدبرس، فرانس برس، هى التى تفرز وتحدد للعالم كله مايراه، وما لايجب أن يراه، وبأى حجم وتركيز وتكرار .

تمهد المتعة السلبية لمرور الصور للتحول من الطفولة التليفزيونية إلى الشيخوخة السياحية . كما كتب مارك فومارولى : «التلفزيون هو سياحة فى المكان، والسياحة هى تلفزيون فى حالة حركة» . الأمركة (الحياة على الطريقة الأمريكية)، وهى طليعة الانحطاط، فى انتظاركم بلغتها : "Shopping - Sightseeing" وكل

الاستهلاك البصرى أو المالى للثقافة الجاهزة ، من «ماكدونالدز» إلى «كوكاكولا» .

السياسة الكبرى هى كيفية إعداد شعب إعدادا جيدا للعبودية - من اليمين أو من اليسار - عن طريق الشاشة الصغيرة وهو يبتسم فى سعادة وغفلة! وإذا كان من السهل حكم الشعب الجاهل ، فما أسهل ذلك عن طريق التلفزيون .

بيع مرشح الرئاسة وبيع معجون الأسنان :

يُعتبر مظهر المرشح أكثر أهمية من مشروعه ومن حججه ! منذ عام ١٩٧٧ ، استيعابا من دروس الانتخابات الأمريكية عام ١٩٧٦ ، كتب ميشيل نوار ، عمدة ليون والطامح للرئاسة ، فى كتاب رائد للسياسة الاستعراضية فى فرنسا : النجاح فى حملة انتخابية ، هو اتباع النموذج الأمريكى! يمكن أن تقرأ فيه :

« إن هدف مسئول التسويق الذى يبيع معجون أسنان وهدف مدير حملة مرشح للرئاسة متطابقان : الإقناع بشراء مُنتجه أكثر من أى منتج آخر » . وأيضا « إذا كان النجاح يستلزم أن يكون المظهر أهم من الجوهر ، وإذا كانت إجادة استخدام الوسائل الحديثة فى الاتصال هى شرطا أوليا للنجاح ، إذن ستفتح المهنة السياسية أمام جيل جديد : جيل النجوم » . .

من الآن فصاعدا ، المهمة الأولى «للقائد» السياسى هى بناء صورته .

هكذا فُتحت «سوق » جديدة لصناعة صورة عن طريق «مستشارين للاتصال». وتتكلف حملات الدعاية ملايين الدولارات، ومن يمولها ينتظر بفارغ الصبر ربحه من ذلك * .

خلق اقتصاد السوق قوة جديدة «ديمقراطية» تتكون من الثالوث المقدس : رجال الحكم ـ رجال المال ـ رجال الأعمال .

* * *

فى مجتمع السوق، لم تبطل الصفة الإنسانية فقط عن الفن، لكنها كذلك أصبحت سلعة فى «سوق الفن»، مثلما بيعت كل القيم بسعر السوق .

الإبداع الثقافى، والذى فيه يؤكد الإنسان ذاتيته، كمسئول عن تاريخه الخاص، أصبح إنتاجا ثقافيا خاضعا لقوانين كل إنتاج سلعى، بمعاييره لربح الشركة .

ماظهر فى « السوق الثقافية » هو ما حدث فى مجمل الأسواق، وهو ما أسماه جالبريث «انقلاب السياق» : لم يعد الهدف الرئيسى

---

* جاء فى كتاب «داخل الكونجرس» لـ رونالد كيسلر، أن الإنفاق على الحملات الانتخابية يصل إلى ٢٥ بليون دولار .

من الإنتاج هو إشباع الحاجات، التى تظهر نظريا فى السوق، لكن أصبح خلق الحاجات (وبالتالى أسواق) القابلة لزيادة الأرباح .

الهدف هو دمج الإبداع الثقافى فى النموذج الاقتصادى الكلاسيكى : الإنتاج، التوزيع، الاستهلاك .

الغالبية الساحقة من شركات الصحافة، والنشر، والسينما والمسرح، معارض اللوحات، التليفزيون، تسيطر عليها وتنظمها قوانين هذه الغابة .

لعبة المسابقات والجوائز الدولية:

يتبع النظام التعليمى قوانين الغابة، فعندما يكون الربح هدف المنشأة التعليمية، فهو الإله الذى لا يقبل شريكا .

وتقوم ألعاب المسابقات والجوائز الدولية بتشكيل أو العبث بالقيم وإفساد الفطرة الإنسانية. ويعمل السماسرة والمضاربون عملهم فى كل مجالات الفنون والآداب.

أسفرت سيطرة الربح على نشر الأعمال الفنية عن هذه النتيجة : حلت العملية التجارية الناجحة مكان العمل الفنى، يساهم النقد الفنى والإعلام على الترويج الذى لاغنى عنه من أجل التجارة باللامعنى .

قائمة بوبورج معبرة : «فضلات كلب موضوعة «بفن» على قطع زجاجية مختلفة الألوان!»، «جدار عليه نقش أثرى، على قاعدته

قطع موكيت أصفر!»، «مشط و مجفف شعر معلقان فى السقف!»، هكذا تضاعفت «التكوينات» من أعواد الثقاب أو قعور القنينات المسماة بأسماء رنانة أطلقها النقاد المكلفون بالتسويق : فورتيسيزم، أورفيزم، جماعة الكوبرا، الفن الأنطولوچى*، إلخ .

الخروج على المألوف، هو المعيار الوحيد الذى يمكن أن يجذب زبائن اليوم، وأن يسمح بدخول إستراتيچية الإسراف إلى «سوق الفن»، عبر عنها بوضوح أحد التجار : «يجب إدخال فكرة التغيير والتجديد للأعمال الفنية، بكل الوسائل . يجب أن نُعلم هواة اقتناء اللوحات الفنية ، كيف يلقون بها - بعد مدة - فى صفيحة القمامة، حتى تحل محلها أنواع جديدة !» .

تولِّد الرغبة البائسة للهروب من مجتمع بلا معنى، نوعا من الجنون أو التدمير، أو على الأقل نسيان العالم وأنفسنا أيضا .

يكتب البانك على قمصانهم : لا مستقبل ! إنها صيحة ومأساة التهميش المتنامية، بفعل امتداد نفوذ السوق على مجالات الحياة الاجتماعية، من تحويل الرياضة إلى سلعة بكل ما يلزمها من عمليات تجارية و خلق للنجوم، وجذب للمشاهدين، كما جذبت من قبل الإمبراطورية الرومانية المنحلة الدهماء .

هناك أيضا الكثير من الفنون التى طوقتها دوامة اقتصاد السوق . لاسيما أن الاستثمارات المطلوبة أكثر أهمية .

---

* مختص بعلم الكون. (المترجمة).

خطط عمالقة هوليوود لغزو أوربا والعالم، عن طريق الأسلوب الاقتصادى القديم للاحتكارات الكبرى: بالتكتلات، بالتملك، أو بالشراء الغامض لثانى أكبر شركة إنتاج فرنسية - يابانية - التى من الصعب معرفة فى أى خليط تمت إذابتها .

استخدم نفس المفترسين سلطة الدول : اتفاقيات بلوم - بايرن فى عامى ١٩٣٦ و ١٩٤٥ التى منحت للفيلم الأمريكى نصيبه فى السوق .

قدمت عبر الأطلنطى الفكرة « الجديدة» بتجريد الفيلم، كذلك المسرح أو الرواية، ليس فقط من كل تساؤلات حول معنى الحياة، لكن من أى معان ذات قيمة .

«حداثة» وفن الـ «بوب» و «الرسم الحديث»و «الموجة الحديثة» و«الرواية الحديثة » وأيضا «الفلسفة الحديثة» - التى تتصف بانعدام الفلسفة - تعمل على محق إنسانية الإنسان فى كل مجالات الثقافة . أصبح هذا التغييب للإنسانية هو المعيار المهم « للحداثة» .

فى كل المجالات ، ومن أجل أسباب الهيمنة الاقتصادية، الهيمنة القصيرة جدا، فإن كل الثقافات الأوربية فى طريقها السريع إلى التحول إلى الطريقة الأمريكية .

المثال الأكثر تحديدا والأكثر تأثيرا هو التلفزيون ، بما أنه لا يتوقف عن عرض «المشاهير» و«العباقرة» .

عشر أصحاب القرار فى التلفزيون الأوربى على هذه الحجة الشديدة الغباء، فى مواجهة تدفق الفيلم الأمريكى : ليس لإنتاجنا سوق فى نفس حجم الغزاة، حتى يصبح إنتاجنا «مربحا» ـ دائما ـ ! يجب أن يتم الإنتاج بلغة الغزاة، ونكتفى بمشاهدة أفلامنا الخاصة بترجمة مزدوجة .

حدث ذلك من قبل فى الأغنية، حيث اضطر الفنان من أجل «سوق الأسطوانة» ـ مرة أخرى ـ إلى التعبير باللغة الإنجليزية .

«واقعية» غريبة، للمهوسين بأمريكا، غير القادرين على التفكير خارج الغرب ! ينسون أن ١٠٠٠ مليون إنسان على الكرة الأرضية يتكلمون اللغة الصينية، ٣٠٠ مليون يتكلمون الإسبانية، ٢٠٠ مليون يتكلمون العربية .

التفاعل المشترك لهذه الثقافات وتلك الخاصة بنا لا يتطلب العبور من خلال اللغة الأمريكية، ولامعناه الركود، الذى هو كما رأينا ميراث لتاريخها .

غابة الصور عديمة المعنى، التى تتوالى فى الأفلام الأمريكية ، والتى تدخل بيوتنا فى فوضى كاملة، تحول المشاهد إلى مستهلك للصور عديمة المعنى الإنسانى .

ليس صحيحا أن «الجمهور يريد هذا»، وأن « الشباب يطلب هذا»، بل هم يكيفونهم لطلب هذا، لأنهم لايقدمون لهم سوى «هذا»، وهم يجذبونهم إلى أسفل .

أعلن السيد هيرسان، المدير السابق لـ «لوسانك» ـ عن القانون السائد ـ بكل وضوح : «أقول إن الفيلم جيد، أو البرنامج جيد، عندما يجلب مشاهدين أكبر للإعلانات التى تصاحبه».

هكذا نشأت ديكتاتورية لقياس عدد المشاهدين للبرنامج، تحدد فى نفس الوقت أسعار الإعلانات والميزانية المخصصة للبرامج .
أعلن ألبير إنسالم، أحد منتجى برامج المنوعات على TFI :

«إذا قدمنا برامج عالية المستوى، انخفض عدد المشاهدين، فهم لا يفكرون . إذن لنتوقف عن لعب دور المعلمين » .

عندما يخضع التليفزيون والإعلام لقوانين السوق، فهل ننتظر إلا السفاهة والتفاهة والسطحية ؟ وعند التعرض للقضايا المهمة، هل ننتظر إلا التزييف والتزوير والانتهازية ؟ دون أى شىء يمكن أن يساعدنا على فهم أحداث نهاية هذه الألفية الثانية، إلا فى جرعة عاجلة وبعد الحادية عشرة مساء ! !

مثلما حدث فى زمن انحلال الرومان وألعابهم للسيرك، نعيش مرة أخرى من جديد عصر «فساد التاريخ»، المتميز بالسيطرة التقنية والعسكرية الساحقة لإمبراطورية لا تحمل أى مشروع إنسانى قادر على إعطاء معنى للحياة والتاريخ . استلزم الأمر حينذاك ثلاثمائة عام لبناء مجتمع إنسانى جديد .

هذا الميلاد لعالم إنسانى، انطلاقا من «ما قبل التاريخ» الحيوانى والذى عدنا لنعيش فيه، لم يكن ليولد إلا من الوعى، على مستوى الشعوب، من سوءات وحدانية السوق وأنبيائها المزيفين .

كتاب فوكوياما، المستشار فى الإدارة الأمريكية، حول نهاية التاريخ، هو التعبير النموذجى لما أُسميه «أعراض ٩٢». إنه نموذج لأيديولوچية تبرير «الفوضى العالمية الجديدة».

تعلن «فلسفته التاريخية» النتيجة منذ الصفحة الأولى : «يمكن للديمقراطية الليبرالية أن تتضمن الحالة النهائية للتطور [. . .]، نهاية التاريخ».

النظرية الكلاسيكية للرأسمالية الأنجلوساكسونية التى أسسها «الرغبة فى الإنتاج من أجل الاستهلاك»، والتى قادت ـ نقلا عن فوكوياما ـ إلى «منطق الطبيعة الحديثة»، لم تعط هذه النظرية كما قال، «الحلقة الناقصة» فى السلسلة بين الليبرالية والديمقراطية».

صنع إذن نظرية تنكرية للمبادئ المحركة للنظام : تنافس الغابة. استعاد التقسيم الثلاثى للروح نقلا عن أفلاطون : الشهوات المادية، التى أسماها «رغبات»، «العقل»، لكنه العقل التقنى و le thumos ـ لازمته ـ، الذى يمكن أن نترجمه فى سياق كتابه «بالرغبة فى القوة»، وهو عند أفلاطون طبقة المحاربين حراس النظام.

ضمان غريب من أجل «ديمقراطية ليبرالية»! وضع فوكوياما إسبرطة أكثر الملكيات الطبقية عنفا بين عداد الجمهوريات!

المرجع الثانى : مكيافيللى، الذى حرر السياسة من كل القيم السامية.

المرجع الثالث : هيجل، الذى جعل التاريخ يبدأ بكفاح حتى الموت من أجل «المعرفة»، سند ميتافيزيقى لسيطرة السيد على العبد.

أخيرا، نيتشه، الذى رأى فيه فوكوياما إثباتا للأسياد «الذين لايخشون المخاطرة بحياتهم من أجل السيطرة».

أبطال فوكوياما المفضلون، مكللون بالعرابة النبيلة، يعنى هذا هؤلاء الذين نجحوا فى الارتفاع فوق الآخرين : فورد، كارينجى، بوش، يلتسين . . . فاته أن يذكر أيضا طرازان، چيمس بوند، ورامبو.

بالطبع لم تجعل «فلسفة التاريخ» هذه أى مكان للحضارات غير الغربية. لكى يقيم الدليل على أن نظام «الديمقراطية الليبرالية» يمكن أن يحتمل ضعفا مؤقتا، لكن ليس تناقضات أساسية، تجنب فوكوياما التذكير بأنه ليس من العالمية : إذا ما كان للعالم الثالث - أربعة أخماس العالم فى الحقيقة - نفس مستوى المعيشة، ونفس معدل الاستهلاك مثل الغربيين، إذن لنفدت مصادر الثروة فى الأرض خلال جيل واحد!

العالم فى فلسفة التاريخ عند فوكوياما، هو مثل الأرض قبل جاليليو وكوبرنيك : الغرب هو المحور، وكل الباقى يدور حوله .

أيضا، فى فصل كتابه المعنون : «أحرار لكن غير متساوين»، أخفى الأساس : حرية الغابة، التى تستبعد المساواة بين الأقوياء

والضعفاء، ولا تتوقف عن تعميق الفرق، ليس بالمصادفة لكن عن طريق مبادئها.

ذلك هو البيان النظرى لوحدانية السوق والسيطرة الأمريكية.

كشف عام ١٩٩٢ عن الفشل المزدوج للحضارة الغربية، فى نموذجها السوفيتى الذى قاد إلى نظام تعسفى، وفى نموذجها الأمريكى الذى أعادنا إلى الغابة. يستلزم ذلك ـ وهو سؤال للبقاء على الحياة الإنسانية ـ أن نسأل أنفسنا حول أخطاء تحول الغرب، أن نسأل عن وسائل وغايات الغرب، وانحراف النهضة فى القرن السادس عشر، وعن اختيار الأهداف النهائية فى القرن الرابع، مع تحريفات «القسطنطينية» للمسيحية واستغلالها كنظرية للسيطرة.

المشكلة الأكثر عمقا والأكثر أهمية للمستقبل هى تلك الخاصة باختيار الأهداف النهائية، أى أنها مشكلة دينية. أو بالأحرى مشكلة إيما ن، لأن الأديان وحدها تبحث وتجيب عن الأهداف النهائية للحياة.

لم ينجح النظامان الاجتماعيان فى الشرق والغرب، لا الأول ولا الثانى، فى الإجابة عن هذه الأسئلة الخاصة بالأهداف النهائية؛ فشلت الرأسمالية لأنها لا ترى أى هدف سوى النمو الكمى لإنتاج السلع والخدمات وأرباحها *.

---

* بول صامولسن ـ جائزة نوبل ـ كتب «السوق فعال، لكنه ليس له عقل ولا قلب». (إل باى، ١٥ من أكتوبر عام ١٩٩١).

وفشلت اشتراكية الدولة في نموذجها السوفيتى. اتخذت لنفسها هدفا، لكن اتضح أنها غير قادرة على الوصول إليه بالوسائل التى استخدمتها * .

ولدت كل منهما على نفس التربة الثقافية الغربية. اشترك النظامان فى اليقين الزائف نفسه، الصادر من غرور النهضة، وهوأن « العلم» التجريبى والرياضى يمكن أن يجيب عن كل المشكلات ويحلها. الوسائل الهائلة التى خلقها ستضمن السعادة.

فشل العلم التجريبى فى ذلك، مثلما فشل علم الاجتماع الوضعى. أفلست هذه الفرضية الأولى، مثلما فشلت فى أن تحل محل الأخلاق. وبالطبع فشل العلم التجريبى والتكنولوچيا فى أن يقودا وحدهما الإنسانية بنجاح.

هكذا، ولد نوع جديد من البشر : الإنسان المبرمج ويعنى هؤلاء الذين يشبهون العقول البشرية بالكومپيوتر، متناسيين أن خاصية الإنسان هى طرح الأسئلة النهائية، وقبلها أسئلة لماذا وما الأهداف النهائية .

الأكليروسية العلمية والتكنوقراطية لديانة الوسائل تُسخِّر طاقات كونية هائلة فى خدمة رغبات حيوان فى الحصول على الحشرات الضارة !

---

* وهى أيضا لم تر هدفا نهائيا أبعد من الأرض.

سيكون إذن هو التحول التاريخى الأخير لإنسان چاوة المنقرض .

مازالوا يطرحون نفس السؤال : « هل يستطيع الكومبيوتر أن يحل مكان العقل البشرى»؟ سؤال مبهم، لأنه لا يتلاءم مع الفروق الجوهرية بين الوسائل والأهداف النهائية .

ليس هناك حد يمكن تعيينه لقدرة الكومبيوتر على الحلول مكان العقل البشرى ليعطيه القدرات ، الوسائل، وحتى الأهداف الوسيطة من أجل الوصول إلى أى هدف. الشىء الوحيد الذى لايستطيع أن يفعله، هو أن يعين لنا الأهداف النهائية .

حدوده هى حدود العقل العلمى والتقنى، أيا كان العقل لجاليليو، أو لنيوتن أو لأينشتين .

لايعنى الأمر أبدا مشكلة نستطيع حلها بمزيد من الإصلاح لوسائلنا و جعلها أكثر فعالية، مشكلتنا هى أن نتساءل حول أهدافنا .

كان هذا التساؤل حول الأهداف النهائية منذ بداية الإنسانية هو من عمل الأديان، التى جاءت لتلبى حاجة أساسية للبشر. ليس للحيوانات الموجهة بغرائزها الثابتة أن تطرح مشكلة النهايات والمعانى. ولد مع الإنسان الشك حول المستقبل، معنى الحياة، الموت ،وما بعد الموت .

إذا كان هذا التساؤل حول النهايات هو خاصية الأديان، فلماذا لم تستطع الأديان الكبرى الحالية، خصوصا تلك الأكثر انتشارا فى

الغرب المسيطر ، المسيحية ، وبصفة خاصة الكاثوليكية ، أن تطرح هذه الأسئلة وتساعد على الإجابة عنها؟

لأنها متصلة بثقافة وحيدة ، حرفتها وأفسدتها . التصور المنغلق على فكر أرسطو ، ثم التصور المنغلق للإله العلى القدير فى الكتاب المقدس ، ثم التصور المنغلق للنهضة - الذى أفسد حتى معنى الإنسان - التصور الذى قُبل فى صمت لفترة طويلة ، لكنه أُدمج أخيرا ، فى «الحداثة» ، بمعنى أولية العلوم والتقنيات من أجل معايرة الحضارات الأخرى ، وتلك هى الإسهامات «المسيحية» فى «أخطاء التوجه» للغرب الذى أصبحت تنتسب إليه .

لم تستطع المسيحية إذن أن تُعيد تشكيل الحضارة الغربية التى تعتبر نفسها كـ «نموذج الحداثة»

الجـزء الثـالـث

التكنولوچيا: الأم الإلهة

لماذا لم تتمكن العلوم والتقنية من حل مشكلات عالمها ؟

أساطير التقدم والحداثة

يتكاثر الهروب، الطوائف، الخرافات، الأساطير، وذلك عندم ينعدم الأمل الحقيقى. ومن بين الأكثر رعبا هناك أساطير التقد والحداثة.

مفهوم «التقدم»، كما عبر عنه فى القرن الثامن عشر كوندورست. وفى القرن التاسع عشر كما عبر عنه أوجست كونت فى «قانو الحالات الثلاث»، وفى القرن العشرين مع مفاهيم «النمو». و«التنمية»، التى هى وريثة المفاهيم السابقة، وُلد كل ذلك من ثقاف عرفتها النهضة من خلال ثلاثة فروض أساسية:

- **الفرض الأساسى لـ«ديكارت»**: «جعلنا أسيادا وملاك للطبيعة»، الطبيعة المنتقصة المختزلة فى شكلها الميكانيكى.

إذن هى علاقات سيطرة على طبيعة مجردة من كل غاية خاصة.

- **الفرض الأساسى لـ«هوبز»**: عرف العلاقات بين البشر «الإنسان ذئب للإنسان»؛ علاقات تنافس على الأسواق، مواجهات

الغابة بين الأفراد والجماعات، أيضا، علاقات السيد والعبد، وعلى المستوى الحالى لقدراتنا التقنية، «توازنات الخوف».

- **الفرض الأساسى لـ «مارلو»**، فى كتابه فاوست، الذى أعلن مسبقا وفاة الإله: «أيها الإنسان، عن طريق عقلك القوى، تصبح إلها، المالك والسيد لكل العناصر».

هكذا تم تكريس القضاء على الأبعاد السامية للإنسان، والرفض لكل القيم المطلقة.

المعيارالوحيد للمفهوم الإيجابى للتقدم، فى هذا المنظور الثقافى الشاذ، هو النمو العلمى والتقنى، الذى من خلاله تقاس قدرة الإنسان على الطبيعة وعلى الآخرين من البشر.

إنه لذو دلالة كبيرة أن العصور الإنسانية استمدت أسماءها من التقنيات المستخدمة: عصر الحجارة المنحوتة، الحجارة المصقولة، البرونز، الحديد... حتى عصر ماكينة البخار والكهرباء والذرة.

يتساءل البعض حول هذه الشمولية التكنولوچية. تصدى لورا- جورهان فى كتابه «الحركة والكلمة»، لما قبل التاريخ، التاريخ ومستقبل الآلة، وأوضح أنه يجب ألا نقايض إنسانية البشر بتقدم التقنيات. تساءل جورهان مسبقا عن المرحلة الحالية، «إذا ما كان للإنسان دور آخر بالإضافة للابتكارات التكنولوچية». «ماذا تبقى من الإنسان فى نهاية التطور التخطيطى المزدوج الذى خضع له؟».

أجاب لورا ـ جورهان ملخصا معنى هذه المغامرة : « يظل اقتصاد الإنسان ، اقتصاد حيوان يعيش على النهب بوضوح ، وأصبح الإنسان فيه الأداة للارتقاء التقنو ـ اقتصادى وذراعاه ، بحيث يستهلك المجتمع طاقة الإنسان فى العنف أو العمل . يربح الإنسان فى هذا الاقتصاد ضمانه التدريجى لحيازة العالم الطبيعى ، الذى عليه أن ينتهى بانتصار شامل فى حالة إذا ما استخدمنا فى المستقبل نفس المصطلحات التقنو ـ اقتصادية للحاضر : استخدام البئر الأخيرة الخاوية من البترول لطهى آخر حفنة من الأعشاب ، يلتهمها الفأر الأخير »* .

كيف لا نذكر ، أمام العبادة التكنوقراطية والعلماوية ، النبوءة الثقيلة للقديس أوجستان التى وصفت العبادة الوثنية : « أُضطهدت البشرية من صنيعة يديها »؟

ينطوى مفهوم «التقدم» على البحث عن معيار موضوعى ، قابل للقياس الكلى ، لكل القيم . لا يمكن ظهوره بهذا الشكل الإيجابى ، إلا فى مجتمع يوجد فيه بالفعل قاسم مشترك لكل القيم .

هذا القاسم المشترك هو اقتصاد السوق ؛ عندمايُعمم ويتدخل فى كل العلاقات الاجتماعية ، تصبح كل القيم قيما سلعية ، نستطيع قياسها بوحدات نقدية .

فى المجتمعات السابقة ، كان هناك أسواق وأماكن للتبادل ، وأيضا وحدات نقدية من أجل تسهيل التبادل .

---

* ص ٢٦٠ .

لكن لم يدخل السوق فى كل الأنشطة الاجتماعية سوى فى عهد النهضة.

تلعب القدرة على الإنتاج، وكمية السلع المنتجة والموزعة، دورا أساسيا فى عملية التجميع الضرورية للأموال من أجل إحراز مكان مهم فى السوق. أصبح مفتاح النجاح هو خفض تكاليف الإنتاج تناسبيا مع حجم الشركة، وتجهيزاتها التقنية. وانحصر دور التطور التقنى، والبحث العلمى فى تحقيق ذلك.

لا يمكن أن يؤدى أى نظام اقتصادى آخر إلى هذه الهيمنة المطلقة للعلم والتقنية، اللذين أصبحا مفاتيح النجاح الصناعى والتجارى.

بعد أن أصبح « التقدم» فى هذه التقنية، وفى هذا العلم، هو المعيار الوحيد «للتقدم» بصفة عامة؛ كان أيضا قابلا للقياس بالوحدات الكمية، وأصبحت «العلوم الإنسانية» المزعومة خادمة لهذه النظرية للتقدم، على غرار الاقتصاد السياسى فى البداية، الذى خلق منذ القرن الثامن عشر أسطورة «الإنسان الاقتصادى»، التى لم تكن سوى منتج ومستهلك متحرك من أجل مصالحه فقط.

هكذا ولدت الحضارة الكمية.

تقبل الفروع الحالية « للتقدم»، النمو والتنمية، نفس المعايير. يُعرف «صافى الناتج القومى» رسميا بأنه: «مجموع نفقات الاستهلاك الخاص، الاستثمارات ونفقات الدولة». من هنا نتج هذا

القانون « للنمو » : زيادة الإنتاج ـ سرعته ـ قلة تكاليفه سواء كان إنتاجا مفيدا أو ضارا ، أو حتى مميتا مثل السلاح .

ما النتائج لهذه العولمة للمفهوم الكمى للتقدم والتنمية على المستوى الحالى؟

لنأخذ طموحات وآمال النهضة ، نقطة نقطة ، ولنَرَ هل تم الحفاظ على الوعود فيما يخص العلاقات مع الطبيعة ، مع المجتمع والرب؟ :

ـ «جعلنا أسيادا وملاكا للطبيعة» (ديكارت) . جعلنا العلم والتقنية أسيادا وملاكا للطبيعة ، بمعنى أننا نملك اليوم القدرة على تدميرها . أسفرت قنبلة هيروشيما فى لحظة واحدة عن ٧٠ ألف قتيل ، الأمر الذى يعتبر تقدما تقنيا لا يقبل النقاش ، بالنسبة لچنكيز خان ، الذى لزمه سبعة أيام من أجل إقامة هرم من ١٠٠٠٠ جمجمة فقط ، عندما ستولى على أصفهان .

تملك القوى النووية مخزونا يوازى أكثر من مليون قنبلة هيروشيما ، بمعنى القدرة التقنية لتدمير سبعين مليار كائن بشرى : اثنتى عشرة مرة الموجودين بالفعل على ظهر الأرض . . أى القدرة على إزالة كل أثر للحياة .

من جهة أخرى ، لا يتوقف الدور المخرب للسوق هنا : فالاعتبارات الوحيدة للعقلية الاقتصادية والاستثمار قصير المدى ، جعلت من سوق البناء وتنظيم المدن أكبر سارق للمساحات الحضرية

ولضواحى المدن، عن طريق التنمية السرطانية للبناء العشوائى. تُخلى الأراضى المراد بناؤها عن طريق الحرائق، ويكلف ذلك ما يوازى مساحة النمسا من الغابات سنويا.

فى الغابات الاستوائية، فى الأمازون على سبيل المثال، تكلف ضراوة المزارعين من أجل التوسع فى تربية الماشية، ما يوازى أربعة وعشرين هكتارا يوميا، معرضين بذلك عملية تنفس خمسة مليارات من البشر للخطر، والهجرة الجماعية لمليار، مطرودين بسبب التصحر.

- منطق السوق ليس أقل تخريبا فى تدمير العلاقات الإنسانية. خلق هذا المفهوم الكمى - وغير المحدود بالطبع - للرغبات وإشباعها، غابة من المصالح المتصارعة التى تترجم من خلال العنف الفردى والإجرام، والصراعات الاجتماعية، وعلى المستوى العالمى عن طريق «توازن الرعب».

أُستُبعد كل مشروع شامل وكل هدف نهائى إنسانى خالص.

فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، والبقاء للأصلح.

- تقوم النقطة الثالثة فى برنامج النهضة على الفرض الأساسى لـ «مارلو»: يمكن للإنسان أن يحل محل الله.

منذ الحلم الديكارتى بإنشاء كون صغير ميكانيكى مطيع، أعطت هذه الرغبة فى القوة بلا حدود للإنسان، قدرة تقنية جبارة: مثل نقل الجبال، وصناعة البحار، و الدوران فى الفضاء، والذهاب إلى

القمر. إنه غريب أن نستطيع عمل كل شيء وألا نعرف ماذا نفعل بهذه القدرات سوى تنميتها بلا نهاية، طارحين دائما سؤال «كيف»، لكن ليس أبدا سؤال «لماذا»؟

نشاهد إفلاس الإنسان الفاوستى. أسَّس ميثاقه مع الشيطان، الذى أعطاه مادة بديلة شديدة القوة، على رفض كل هدف نهائى، والتأكيد على أن العالم والحياة ليس لهما معنى: الرجل الحالم بأن يصبح إلها دون أن يحقق ذلك. كتب سارتر: «الحياة رغبة مستحيلة». ردد كامى: «الحياة عبثية»، محللا بطريقته أسطورة سيزار، الذى كان يدحرج صخرة نحو قمة الجبل، لتعود فتسقط دائما نحو الوادى. أعطى كامى هذه النصيحة اليائسة: «تخيلوا سيزار سعيدا».

عمم چاك مونو لكل أبعاد الحياة، والتاريخ، والأخلاق، نموذجا تفسيريا توجيهيا قام بتوظيفه فى أبحاثه على المستوى البيولوچى، مؤكدا أن كل حقيقة - ووجودنا الذاتى - تكون عن طريق «الحاجة والصدفة»، دون أى دلالة أو هدف نهائى.

فشلت محاولات فاوست، وتلك الخاصة بـ «مارلو» فى القرن السادس عشر، وتلك المنسوبة لـ «جوته» فى القرن التاسع عشر، للسيطرة على العالم. لم يستطع الإنسان الغربى بعد خمسة قرون من الهيمنة أن يبتكر معنى جديدا، هدفا جديدا، رغبة جديدة أكثر نبلا وأكبر حجما.. حرية جديدة.

تمنحنا معظم أعمال علم المستقبل أو الخيال العلمى، الكثير من التفاصيل حول الوسائل التقنية التى ستكون تحت أيدينا خلال العشرين أو الثلاثين عاما القادمة من أجل إشباع حاجاتنا ورغباتنا، لكنها نادرا ما تطرح تساؤلا حول معرفة ماذا ستكون حاجاتنا أو رغباتنا فى هذه المرحلة الجديدة من التنمية البشرية.

أشهر الروايات المسماة بـ «الاستباق» * مثل «أفضل العوالم»، لـ «هكسلى»، أو «١٩٨٤» لـ «أورويل»، ليست أبدا يوتوبيا إبداعية للمستقبل. فهى تذكر فقط عن طريق التعميم، كيف سيكون الانحراف المذهل لعالمنا، إذا ما استمررنا على نفس قوة الاندفاع الحالى، دون أن نتدخل فى أى لحظة باختيار إنسانى، قرار إنسانى حول النهايات.

نموذج لـ «علم المستقبل» الإيجابى: عمل هيرمان كان «حول عام ٢٠٠٠». تحددت منذ الصفحات الأولى، فروضه الأساسية، تلك الخاصة بسياسة الحكومة الأمريكية فى زمن كتابته لهذا العمل.

يحدث كل شىء كما لو أننا ننطلق من مبدإ ضمنى لطبيعة بشرية لا تتغير فى حاجاتها ورغباتها.

الشقاء الأكبر لعلم المستقبل، هو استخدامه فى دوائر قريبة جدا من مراكز القرار، المتعلقة بالشركات، بالجهات المعنية بإعداد الأراضى أو التخطيط، أو خدمات الدفاع الوطنى.

---

* رواية الاستباق: رواية تجرى أحداثها فى المستقبل فتسبق تطور العلوم. (المترجمة).

فُرض إذن على علم المستقبل، منذ بدايته، ضغوط تُرهبه وتُشكله.

أصبح علم المستقبل فى الشركات خادما لـ «التسويق»؛ على المدى الطويل لاستغلال الأراضى. «سيناريو اتجاهات فرنسا لعام ٢٠٠٠» - نقلا عن كلمات المكلف بهذا العمل - ينطلق من الوضع الراهن وصانعا من خلاله وسائل التطور التى يلزمونه بها، مستخدمين دوام النظام السياسى كضغوط.

مثل ذلك المفهوم لعلم المستقبل الإيجابى، والذى يُغَيِّب فيه الإنسان وقراراته، يأتى على عكس ما أسماه جاستون برجر «المستقبلية». المستقبلية لا تتضمن التعميم انطلاقا من الحاضر، والتساؤل فقط عما سيحدث فى المستقبل إذا لم نفعل شيئا من أجل تعديل اتجاه أو قلب انحرافات الحاضر، لكن على العكس، عن طريق فتح كل السبل أمام الإمكانات البشرية محاولين تعريف ما الذى يستطيع منها أن يسفر عن اختيارات مختلفة ومستقبليات يمكن أن تنبت فيها.

* * *

تخص كلمة «حداثة»، مجموعة مبهمة من السلوكيات:

- حضارة مسيطر عليها من خلال العلوم والتقنيات.

عقل براجماتى، مرتبط بحكمة الغاية تبرر الوسيلة. وتسلطت

مقولة : كل الأسئلة التى لا نستطيع الإجابة عنها هى أسئلة خاطئة . بما فى ذلك أسئلة الخير والشر ، والتى تشكلت منذ ذلك الوقت من خلال علاقات القوة .

ـ وحدانية شمولية للسوق ، أى للمال . نظام تُختزل فيه كل القيم إلى قيم سلعية .

ـ نمط حياة «غربى» يهدف إلى تحويل الإنسان إلى منتج أكثر وأكثر فعالية ، مستهلك أكثر وأكثر شراهة فى رغباته ، تحركه مصلحته الفردية فقط .

مؤسسو نظم المدن السرطانية ، المصابون بجنون العظمة ، البربرية المعالجة إعلاميا لحفارى القبور الجدد . . .

«الحداثة» : هل ستكون الموت البطىء للفن ، للحب ، للإيمان ، للإنسانية؟ لكل ما يعطى للحياة معنى ومسئولية؟

يتساءل معجم روبير : «من يستفيد من التقدم الحديث للتقنية والعلم؟» .

علم أسطورى ، كما تصورته الفلسفة الوضعية* انعكاسا لحقيقة مطلقة ونظام مكتمل .

---

* وضعية : (فلسفة أوجست كونت التى تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية ، مهملة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة . وهى أيضا كل فلسفة تعتمد على معرفة الوقائع وعلى التجربة العلمية) . (المترجمة) .

بدا منذ القرن التاسع عشر بصفة خاصة، أن انطلاق العلوم والتقنيات قد أثبت هذه التفاؤلية للإنتاجية المطلقة بلا قيود، التى ستكون قادرة على تلبية كل الحاجات وصناعة السعادة.

العلم كمصدر وحيد للحقيقة، وموزع وحيد للأمل، اعتبر الدين كالتقاليد القديمة. الدنيوية أيضا واحدة من معايير الحداثة. قادت هذه القطيعة مع التراث، إلى تعظيم الفردية بالانشقاق عن الماضى.

أصبحت فكرة الانشقاق عن التراث هى المسيطرة على الحداثة.

الفن الحديث، فى الرسم على سبيل المثال، عُرف من خلال سلسلة من الانشقاقات بالنسبة لتقاليد الماضى، من محاكاة الطبيعة، وخاصة عن طريق فن الرسم المنظورى ودراسة الأشكال الخارجية:

تحطيم اللون . . . هو الانطباعية.

تحطيم المسافة والشكل . . . هو التكعيبية.

تحطيم الأشياء والطرافة . . . هو التجريدية.

ما اتفق على تسميته «الرواية الجديدة»، بعد انشقاقات جوليس وفولكنر، أُدخل هذا المنهج فى فرنسا على يد روب ـ جرييه، هى الانشقاق عن الموضوع، قصة أو مسرحية، عن الشخصية وتحليلها النفسى، عن الزمن المحدد أو المسافة المركبة.

أصبحت فكرة الانشقاق هذه مسيطرة بدرجة كبيرة استحواذية ، حتى إن «الحداثة» انتهت بكونها تغييرا من أجل التغيير ، التجديد بأي ثمن . حدث هذا ، عن طريق الجهل بالماضى أو التحدى الواعى للتقاليد .

هذا الاضطراب فى البحث عن جديد من أجل الجديد أيا كان المعنى والقيمة ، هو حداثة تكتفى بنفى ما سبقها .

طلاء شعورهم بالأخضر أو الوردى هو وسيلة للانفصال بالتحدى ، دون أن يكون لهذا أصالة ، وأقل أيضا من إبداع .

الأصالة ليست ببساطة فى غرابة الشطط وفى التعسف ، لكن فى المعرفة العميقة للماضى ومتطلبات تجديده أو تغييره أو حتى رفضه ، من أجل الإجابة عن مشكلات مستحدثة . حل ما لم يُر أبدا من قبل .

كتب جوان جريس ، وهو واحد من الرسامين الأكثر تجديدا والأكثر ثورة فى القرن العشرين : « تقاس عظمة الإبداع الجديد فى قوة الماضى التى تحملها داخلها ، وليس فى جهلها بالجهود السابقة للإبداع وتجاوزاته» .

يقود جنون الرفض الجاهل هذا إلى تصحر الإنسان فى كل المجالات ، من الحياة الخاصة إلى السياسة .

ما يسمى علم الأخلاق الحديثة هو سلوك إباحى ، لم يتساءل أبدا حول المعنى الذى تحمله الضوابط قبل رفضها . لا تقع مثل هذه الأخلاق «فيما وراء الخير والشر» ، لكن من جانبه .

ما يسمى مجتمعا حديثا، هو ديمقراطية غربية، تكون قوانين السوق والنمو هي المنظم الوحيد، في داخلها.

في الآونة الأخيرة، حلت بالإنسان ـ ضحية تقدمه التقني ـ كارثة مؤكدة في النظامين السائدين، في الشرق والغرب.

واحد من النظامين، هو ذلك الذي في الغرب، قاد في مذبحة الخليج إلى سقوط ضحايا أكثر عشر مرات من ضحايا هيروشيما.

الآخر، ذلك الذي في الشرق، أدى لانهيار النظام السوفيتي.

إن موضوع الخلاف الجوهري في هذا المفهوم «للحداثة»، هونموذج العقلية الغربية.

والحال أن هذا المفهوم المنتقص «للعقل» الذي أشار إليه نيتشه سابقا، هو «العلامة المميزة للأوربيين»، هو اليوم موضوع خلاف بسبب نمو العلوم نفسها، التي أدت إلى اندلاع الأساطير العلموية*.

---

* العلموية: مذهب يقرر الاكتفاء بالعلم من حيث قدرته على حل كل المشكلات. (المترجمة).

توسيــــع مجـــال العقـــــل

غيرت النظريتان اللتان هما قاعدة كل علوم الفيزياء الحديثة - وهما «النظرية الكمية» و«نظرية النسبية» - وجهة نظرنا فى العالم.

فى مفهوم الفيزياء الكمية، انتفت فكرة أن المادة تتطابق مع نفسها، منفصلة عن المواد الأخرى وعن الإنسان. تحول المراقب إلى مشارك. الكون نسيج من العلاقات المتصلة حيث لا يعرف كل جزء من المجموع إلا من خلال علاقاته مع المجموع.

تقدم لنا نظرية النسبية، حيث لا تمثل الكتلة سوى مظهر للطاقة، تقدم الكون كأنه محيط، حيث لا تظهر المادة المتعذر إمساكها إلا من خلال نشاطها.

اكتشف أينشتين هذا الزلزال للعقل، مدمرا بذلك كل تصورات الفيزياء الكلاسيكية: «كان الأمر كما لو أن الأرض توارت تحت خطواتنا، دون أى شىء ملموس ولا جزء واحد نستطيع الاستناد عليه، أو البناء فوقه».

انهـار كـل البنيـان العـقلى المطـمـئن، المـادة، الفـضــاء، الزمن، التماثل والسببية.

ألـم يصبح ما أطلقنا عليه، فى الغرب، المنطقى سوى التقليدى؟

ألـم تصبح تقـاليـد أرسطو، أوكليد، ديكـارت وأوجست كـونت، ولـم تكن «حقا إلهيا»، ألـم تصبح ببساطة «عرفا»؟

ما هو الواقعى إذا لـم يستطع أن يصغر إلى محسوس لوك أو إلى معقـول أفلاطون؟ إذا لم يستطع أن يكون «شيئا»، شيئا منفصلا عن الموضوع، فى حالة إذا ما تلاشت الحدود أو اضمحلت بين المادة والعلة؟

المعرفة التى نملكها ليست الانعكاس للإحساس المجرد، كما يقول لوك، وليست الاستغراق فى التأمل لفكرة خالصة، كما يقول أفلاطون.

الطبيعة ليست فقط مجموعة من الأشياء الصامتة لقلوبنا أو لوازم لمصـانعنا. يمكن لهـا أن تُحَب، تُتـأمل، تتحـول إلى عـمـل فنى يحمل رسـالة ومشاعـر، مثل الرمـز، القـربان أو التـجلى. كـتب جيلبير دوران: «التآلف هو التوقيع الجماعى للأفعال الإلهية».

لـم يُصنع الكائن البشرى ـ كما جاء عند ديكارت ـ فقط من هذا الفـراغ، وهذه الحـركة التى من خلالهـا اعـتـقد ديكـارت استطاعة «إعادة صنع العالم».

كتب المتصوف الإيرانى محمود شاميس فى القرن الرابع عشر فى كتابه «بستان ورود الأسرار» : «نزلت الكلمات الإلهية من خلال الأنبياء والحكماء من أجل أن تذكرك بالميثاق الأول مع الله» .

قول الله ، هو صنع هذا الرهان : الحياة لها معنى ، دون ذلك كل شىء عبثى وكل شىء مباح .

يتيح تأكيد أهمية الخيال إدراك «القصيدة المطلقة» ، يعنى ذلك الحياة فى شاعرية ، فى كل الأنشطة والأبعاد فى الحياة : من الفن إلى السياسة ، من الإنتاج الصناعى إلى الإيمان .

إلى جانب الخضوع ، المنطقى أو التجريبى ، الاشتراك فى الإبداع المستمر للعالم وللحياة .

ربط الله ، البشر والطبيعة فى مغامرة واحدة ، حيث لم تكتب النهاية حتى الآن . نحن لسنا عبيدا للقدر . القدر ليس بين أيدينا . نحن أيادى القدر . مسئولون شخصيا عن الإبداع المستمر للعالم .

واعون أن الإنسان كبير جدا عن أن يكفى نفسه بنفسه .

الجــــزء الرابـــع

ماذا نفـعل ؟

تنظيم الحرب الاقتصادية

لابد من انعكاس جذرى فى وجهة نظرنا فى «السياسة» .

مانسميه اليوم «السياسة» بكل مافيها من ناخبيها ، أحزابها ، يمينها ويسارها ، مسيراتها و مظاهراتها ، كل ذلك ليس سوى هيكل عظمى ، أو على الأكثر شبح : ذيل القرن التاسع عشر ممتد إلى نهاية القرن العشرين .

فى نهاية القرن التاسع عشر ، تصارع المحافظون من أنصار عودة النظام الملكى القديم وطبقاته التقليدية ، مع ورثة مسيحية «التقدم» باندفاع العلوم والتقنيات اللازمة لنهوض الاقتصاد الجديد ، وذلك ضد البقايا الإقطاعية والكهنوتية .

كانت اللعبة الرئيسية إذن هى غزو الدولة . يعنى ذلك إذن غزو البرلمان ، بتقسيمته الجغرافية لمدرجاته (اليمين واليسار) ، والذى يسيطر على الساحة السياسية فى الدولة كلها .

بلغت الطقوس الانتخابية أوجها فى القداس الكبير أمام صناديق

الاقتراع . أصبحت بطاقة الاقتراع الدليل على سيادة المواطن ، مثلما كان في الماضي تقديس سيادة الملك .

بعد مائتي عام ، كشفت الاحتفالات الهزلية لذكرى الثورة الفرنسية - حيث بدأ الكرنفال من الشانزليزيه - كشفت أهداف العملية والسخرية من طقوسها في الوقت نفسه .

اختفى من على الساحة ، كل الممثلين ، كل المحركين وكل المعاني السياسية للقرن التاسع عشر ، والمؤرخون يضربون الطبول لجمع المتسكعين في الشوارع أمام ديكور المسرح الفارغ ، كما لو أنه ليس هناك شيء تغير .

أُدخل «المحافظون» من الجيل القديم ، اليمين قسرا إلى جانب الحديقة . على جانب الساحة كان هناك «الآباء المؤسسون» لليسار و«للتقدم» الذين تم «تدريجيا» تحويلهم إلى كلاب حراسة لاقتصاد السوق بعد أن أصبح وريث «الحق الإلهي» .

المأساة الحقيقية من الآن فصاعدا ، هي أن حياتنا ومستقبلنا ، سيتم إقرارهما في كواليس عارضي العرائس المتحركة .

هنا ، تحت الحراسة اليقظة للملكية المنتخبة ، توجد كل حقيقة السلطة ، تمارس على كل المستويات دون تدخل من هؤلاء الذين مازلنا نسميهم «مواطنين» بما أنهم لم يعد لديهم أي سيطرة على إدارة المدينة .

يعلن بعضهم أنفسهم في اليمين رافعين راية «الليبرالية» (مثل

ريجان ، وتاتشر ، وبوش) ، الآخرون فى اليسار المسمى «تقدميّا» ، وهو الذى أسماه واحد من روادهم ـ ليون بلام ـ منذ نصف قرن ، سياسة «الوكيل القانونى للرأسمالية» .

يسيطر أنصار الاتجاهين على كل شيء ، بداية من المناصب الوزارية حتى إدارات الولايات ، ويضمنون استمرارية عمل الماكينة العملاقة للدولة .

تتخذ القرارات الكبرى ـ مثل الخطة ـ فى اللجان ، المجهولة من الجمهور ، وغير المسئولة أمام الشعب ، أو تتخذ من قبل كبار الموظفين فى الدولة الذين يقابلون كبار مديرى القطاع الخاص .

هؤلاء وأولئك كلهم لديهم نفس التكوين ونفس الدين : وحدانية السوق . ونفس مستقبل التقاعد ثم التكدس فى المجالس الإدراية للشركات المتعددة الجنسيات ، وهذا فى حالة ما إذا كانوا مطيعين لجماعات الضغط المسيطرة عليهم والتى توجههم .

«الدولة» ، فى مظاهرها الخارجية (الشرطة والعدالة ، الإدارة ، اللوائح والسجون) ليست فقط «الحارس الليلى» الذى حلم به الليبراليون فى القرن الماضى ، لكنها أيضا آلة الضغط لكل مايمكن أن يفسد اللعبة الحرة لاقتصاد السوق مثلما يدرسونه فى هارڤارد ، أو يدفعونه فى كل أنحاء العالم منCouncil Of Foreign Relation فى نيويورك تحت اسم «النظام العالمى الجديد» .

هذا «الاقتصاد السياسى» هو علم الأشياء وليس البشر . يرتكز

على العقيدة الضمنية «للنظام الطبيعى» (الخاص بالسوق) ، الذى لايستطيع الإنسان تحويله لكن فقط إدارته .

يتماثل هذا النظام أكثر فأكثر مع نظام الولايات المتحدة الأمريكية : يماثل المجتمع شركة تجارية ، حيث لا تلعب الثقافة والتفكير فى الأهداف النهائية أى دور . هذا هو «العلم» الذى يعلمونه . الكتب المقدسة هنا هى كتب صمويلسون و ميلتون فريدمان (ترجمها ريمون بار) .

يتضح منطق النظام الذى يربط الدولة باحتياجات السوق فى الطريقة التى تطبق بها قرارات ماستريخت ، كما أشار إليها البنك المركزى الألمانى ، إدارة سياسية مدمجة لاقتصاد مدمج . إنشاء سوق واحدة وعملة واحدة لايمكن أن يسمح للدول المختلفة بممارسة سلطة سيادية من أجل إقرار سياسة اقتصادية ذاتية حسب مصالحها الخاصة . (إفقاد الجنسية لأوربا وإعادة بنائها بمصطلح الحكومة الواحدة للاتحاد الأوربى) هو نتيجة لهذا المنطق : لا إدارة محتملة لنظام اقتصادى أوربى دون نظام سياسى أوربى .

«أوربا الموحدة» مثلها مثل مشروع السوق الأمريكى الواحد ، من ألاسكا إلى أراضى النار ، أو الوحدة الاقتصادية الإفريقية ، كل ذلك هو تجربة تمهيدية لسوق عالمى مدمج تحت سيطرة الولايات المتحدة .

على المستوى العالمى ، يقود هذا المفهوم على طريقة داروين

«للمنافسة الحرة» حيث «الأقوياء» فقط هم المدعوون للبقاء على قيد الحياة . يقود هذا المنطق نفسه إلى تدمير فائض سكان العالم الثالث ، كما اقترحه من قبل هنرى كيسنجر فى مذكرته الدبلوماسية السرية إلى الرئيس فورد فى ١٦ من أكتوبر عام ١٩٧٣ (نشرت فى الأرشيف القومى الأمريكى فى ٢٦ من يونيو عام ١٩٩٠) . انطلاقا من أطروحة مالتوس ، **أوضح كيسنجر أن خفض سكان العالم الثالث كان مشكلة «أمنية» للولايات المتحدة الأمريكية .**

هكذا نرى إلى أى إنكار للوحدة الإنسانية تقودنا هذه « العبادة الوثنية للسوق» .

هكذا ، يدوم ويتفاقم عدم المساواة فى التبادل وفى مستويات المعيشة ، وأيضا فى الثقافات ، بسبب إزالة تنوعها لصالح عدم الثقافة المسيطرة . يؤدى هذا الاتجاه إلى «التفكيك المنظم» للثقافات ، و للحضارات ، وللبشر .

تتطلب مقاومة هذه الهيمنة الجديدة إعادة التفكير بطريقة جذرية جديدة لما نسميها «السياسة» .

الشركة التاريخية التى تهددنا شركة عالمية ، ومثل كل المجالات الأخرى ، لايمكن حل أى مشكلة فى إطار دولة واحدة أو طبقة واحدة أو دين واحد . لابد أن تؤسس السياسة الجديدة على وحدة العالم ، وبصفة خاصة على التعاون الوثيق مع العالم الثالث .

الشركة التاريخية التى تهددنا شركة اقتصادية : الولايات

المتحدة ، الأحزاب ، «السياسات» بالمعنى التقليدى ، منظمون لهذا الانحطاط الموحد الأبعاد للعالم والإنسان . لايجب إذن ، أن تستهدف السياسة الجديدة فقط الاستحواذ على السلطات «السياسية» ، لكن العمل على تحطيم السلطة الاقتصادية للسيد الحالى : الولايات المتحدة الأمريكية .

الشركة التاريخية التى تهددنا هى شركة عملاق ذى أقدام من الطين ، الولايات المتحدة ، التى تعتمد فى هيمنتها العسكرية على قاعدة اقتصادية هشة . لابد إذن من مهاجمة العدو من نقطة الضعف هذه .

فى أى شىء يكمن الأمل فى استعادة مستقبل ذى وجه إنسانى؟ الاعتماد على القوة العسكرية هو دائما أمرمؤقت . إنهم المهزومون فى الحرب الأخيرة ، ألمانيا واليابان ، الذين عرفوا أكبر توسع من نوعه بلغ إلى تهديد القوة الأمريكية . حتى لو كان توسعهم يقع أيضا فى المستوى الاقتصادى وليس فى المستوى الإنسانى . مهزومو أعوام الأربعينيات هم فعليّا الحلفاء المؤقتون لمهزومى أعوام التسعينيات . الذى يعنى شعوب العالم الثالث بعد حرب الخليج ، شعوب الاتحاد السوفيتى القديم بعد تفككه ، وشعوب أوربا المفتوحة بفضل قادتها (قادة اليمين ، تلاميذ أوربا المحافظين الإنجليز) ، وأيضا قادة اليسار المتأمرك ، فى ظل النظام الأمريكى العالمى .

هذا الموقف غير المسبوق يستلزم سياسة غير مسبوقة تستخدم طرقا جديدة :

١ـ تنظيم حرب اقتصادية .

٢ـ رأب الصدع الذى شقه الاستعمار بين الشمال والجنوب .

٣ـ إلغاء أسطورة حرية السوق ووحدانية السوق، وبناء التكافل .

إن هدف إستراتيجة الحرب الاقتصادية، هو العمل على تفاقم الركود الاقتصادى الأمريكى لتوصيله إلى أزمة أعمق كثيرا من التى مرت به عام ١٩٢٩ .

ينبع التكتيك والوسائل من الهدف : تقليص السوق الأمريكى.

المقاطعة هى السلاح الأول

العملية صعبة ، بداية لأن فرنسا لا تشكل سوى جزء من السوق العالمية ، وأيضا بسبب الاستثمارات الأمريكية فى الشركات المفترض أنها «فرنسية»، ولأن تراكب الاقتصاديات المتعددة الجنسيات تفرغ شعار «اشتروا الإنتاج الفرنسى» من محتواه .

برغم ذلك ، هناك إمكانية لتوجيه ضربات قوية للتصدير الأمريكى عن طريق مقاطعة السلع الأمريكية الخالصة ، وأولا على المستوى الغذائى . الجدال ، الدائر داخل GATT (المنظمة الدولية للتعريفة الجمركية والتجارة) من أجل السماح للمزارعين الأمريكيين بتمرير فائض محصولاتهم ، لايمثل ذلك سوى الجزء المرئى من الضربات التى يمكن توجيهها إلى هذا القطاع من الاقتصاد الأمريكى القائم على تصدير الحبوب والصويا .

تمتلك الولايات المتحدة الاحتكار العالمى لتجارة الصويا ، تصدر منه كل عام عشرة ملايين طن من الكُسب لتغذية الحيوانات . يعتمد غذاء أوربا من اللحوم بشدة على ذلك .

توجد هنا وسيلة ضغط قوية، لذلك فإن الولايات المتحدة شديدة اليقظة لحماية هذا الاحتكار : نجحت الولايات المتحدة فى إغلاق مصنع Lavera فى فرنسا ، بالقرب من مارسيليا ومنشآت Sar-daigne فى إيطاليا ، وذلك لمنع الإنتاج الصناعى للپروتين باستخدام عملية صناعية خاصة بتكرير البترول ابتكرها عالم فرنسى .

وفى الوقت نفسه، تسمح العلاقة الفرنسية بمركزى إنتاج البترول اللذين مازالا بعيدين عن السيطرة الأمريكية ، إيران وليبيا ، بإطلاق استقلالنا ـ فى هذا المجال ـ تجاه الولايات المتحدة، وبإنهاء مشكلة المجاعات وسوء التغذية فى العالم الثالث .

تسليط الأضواء على هذه الأهداف الاقتصادية الأساسية ، بدلا من المعارك العبثية المسماة «سياسية » ، سيؤدى إلى ظهور المشكلات الحقيقية لنهاية القرن .

ويمكن أن توجه المقاطعة أولا تجاه عدة منتجات لها قيمة رمزية للتغلغل الأمريكى ، بداية من الأفلام والأسطوانات الأمريكية وحتى السجائر والكوكاكولا .

بالمقاطعة، يمكن ضرب أكبر وأهم الصناعات الأمريكية ، من السيارات إلى المخدرات ، التى يمثل التهريب الدولى لها واحدا من المصادر الرئيسية لتمويل رجال السياسة الأمريكية .

يغير أسلوب المقاطعة جذريا أسلوب العمل السياسى ، لأنه لا يتطلب تدخل الأحزاب ولا الحكومة ، لكنه على العكس مسئولية

شخصية واهتمام شخصى ، يستتبع فى بعض الأحوال تضحية - تلك الخاصة بعاداتنا المفضلة - تؤدى إلى تغيير فى «أسلوب حياتنا» (التى أصبحت مؤمركة بقوة) .

إنه عمل غير عنيف ، لكنه يمكن أن يتطلب تضحية شخصية . عندما تأخذ الحركة فى الاتساع ، يمكن أن نواجه إجراءات أكثر طموحا ، ضد الغزو الأمريكى للتلفزيون ، أو حتى إضراب انتقائى عن الضرائب ، على سبيل المثال ضد المصروفات المخصصة لجعل الجنود الفرنسيين جنودا إضافيين للحروب الأمريكية .

فى النهاية ، سيؤدى ذلك إلى ميزة مهمة ، وهى خلق فرص عمل من أجل إنتاج بدائل السلع المقاطعة فى كل قطاعات الاقتصاد تقريبا .

وضع نهاية للصدع الاستعمارى

بين شمال وجنوب العالم

تنحدر كل مشكلاتنا الكبرى : البطالة ، الهجرة، الثقافة ومعنى الحياة، العنف والحرب ، من مشكلة واحدة أساسية : الصدع الاستعمارى فى العالم .

لايعنى الأمرهنا برنامجا سياسيا من بين البرامج الأخرى ، ولا يوتوبيا تقترح «الأفضل للعالم» خياليا، لكنه مشروع لليقظة ، يقترح خطوط قوة لعمل بعيد تماما عن الانحرافات الانتحارية لكوكبنا .

كتب شكسپير فى «الملك لير » : «هنا العالم الذى يحكم المجانين فيه العُميان»، فى ذلك العصر للنهضة ، حيث بدأت انحرافات الغرب التى نعيش اليوم نهايتها .

فى هذا العالم للامعنى ، أمام هذه الهزيمة الجديدة للإنسان ، المتفاقمة بسبب القدرة التقنية للبربرية المبرمجة إلكترونيا ، لا بد

أمـام كل ذلك من المـواجـهـة بالبـديل لـمعـاودة الارتفـاع إلى الإنسانية .

هناك أربعة أهداف لها الأولوية من أجل تحقيق هذا التحول في الأهداف النهائية والوسائل لمجتمعنا :

١ـ إيقـاظ رد فعل شعـبى ناقـد حـول أهداف الحـيـاة وحـول الأهداف النهائية لتاريخنا المشترك . لمواجهة تيار الفردية و « كل إنسان يعيش من أجل نفسه » ، لابد من الوعى بكل مايقع على كل شخص من مسئولية خاصة تجاه المصير الجماعى .

٢ـ مفتاح حل مشكلاتنا الكبرى ، هو تغيير جذرى فى علاقاتنا مع العالم الثالث :

بهـدف قلب أسـاليب الضـغط المـدمـر لصندوق النقـد الدولى . وأيضا بالتوقف عن التدمير ، عن طريق الهيمنة الاستعمارية للتنمية الداخلية .

وحل مـشكلات البطالة عن طريق إعـادة تشكيل جـهـازنا الاقتصادى من أجل تلبية مطالبنا الحقيقية ومطالب العالم الثالث .

وحل مشكلات الهجرة التى ستتحول إلى غزو للبؤس ، إذا ما استمر عدم التناسب الحالى فى التفاقم .

وحل مـشكلات الثقـافة إذا مـا أُزيلت المـزاعم الغربيـة بالتـفوق وعالمية نماذجـها للنمو والثقافة ، وذلك من أجل الانفتاح على الثقافات الأخرى ، برغبة فى التأثير المتبادل .

٣ـ نكرر بلا ملل : العقبة الرئيسية هى وحدانية السوق ، بنظريتيها الأساسيتين : أسطورة الحداثة وأسطورة الديمقراطية . من أجل محاربة ذلك لا بد من تفاعل جهود كل من تمثل الحياة عندهم معنى : إيمان بالله أو إيمان بالإنسان .

٤ـ تغيير نمط حياتنا لن يتم فقط من خلال التبشير الأخلاقى وعكس الوضع الحالى ، لكن عن طريق تصحيح إنتاجنا واقتصادنا . أيضا عن طريق مشاركة كل هؤلاء الذين لا يعيشون من التفكير الطفيلى فى الفساد ، لكن يعيشون من الإبداع والإنتاج الحقيقى لخدمة المجتمع .

مفتـــاح مشكلاتـــــنا

مفتاح مشكلاتنا يكمن في إحداث تغيير جذرى فى علاقاتنا مع العالم الثالث ، وفى تغيير جذرى أيضا فى النموذج الغربى للنمو .

سيصبح الهدف الثانى، مع هذه اليقظة وهذه «الصحوة للضمير» ، استعادة تدريجية لعملنا المباشر، ليس بالأنانية الوطنية التى لن تحل أى مشكلة بل ستزيدها، لكن من أجل حاجات العالم فى مجمله، وفى البداية من أجل الجزء الأكثر احتياجا : العالم الثالث .

رسمت سوزان چورچ* شكل هذا النظام الاقتصادى العالمى الجديد، المتناسق عكسيا مع ذلك الذى يفرضه صندوق النقد الدولى الذى يزيد من عدم التوازن العالمى .

المشكلة الكبرى التى تفرضها الديون، هى تلك الخاصة

---

* سوزان چورچ - حتى متى؟ دار نشر لارى كوفرت - باريس ١٩٨٨ .

بالأولويات فى الصادرات والواردات . التغيير فى هذه النقطة يمكن أن يثير جدلا إذا ما تمت معالجته من خلال المنتجين أنفسهم. على سبيل المثال، يجب توجيه الجمعيات التعاونية الزراعية والنقابات ، والحكومات، إلى إشباع الحاجات الحقيقية الخاصة بالأغلبية العظمى من الفلاحين، وأيضا التوجه إلى الكفاية الغذائية للجميع وليس إلى ترف عدد من المميزين فى تجمعات عمرانية محاطة بمدن من عشش الصفائح.

لن يتمكن العالم الثالث من وضع نهاية للمذبحة الغذائية التى تعرض لها من الاستعمار إلا عن طريق مضاعفة التبادل بين الجنوب والجنوب. ومن أجل الهروب من طغيان العملات الأجنبية ، عليه اللجوء إلى نظام المقايضة فى تبادلاته التجارية .

يتضمن هذا الطراز الجديد من العلاقات مع العالم الثالث مزايا متبادلة :

بالنسبة لدول العالم الثالث ، تظهر إمكانية خلق أنماط تنمية داخلية مختلفة عن تلك النماذج التى يفرضها صندوق النقد الدولى، والتى تديم من ديون العالم الثالث ، وتبعيته وبؤسه .

بالنسبة للدول الصناعية ، تتطابق الحاجة إلى تلبية الحاجات الحقيقية للعالم الثالث، مع حركة تحويل الإنتاج إلى هدف إشباع حاجتنا الحقيقية، وليس صناعة السلاح والدمار . وهذا هو الحل الوحيد لمشكل البطالة الأساسية .

فى فرنسا ، لم تتوقف البطالة عن التزايد ، أيا كان فريق الحكم . كان هناك فى عام ١٩٧٣ ، ٤٢٠٠٠٠ عاطل . فى بداية عام ١٩٧٧ فى عهد چيسكار ديستان ، تضاعف الرقم ، وتعدى حاجز المليون ، وهو الرقم الذى تنبأ الرئيس الراحل چورچ بومبيدو بأنه لو حدث فسيقع الانفجار .

فى عام ١٩٨٠ ، مازلنا تحت حكم ديستان ، وقد صلنا إلى المليون ونصف المليون . فى منتصف عام ١٩٨٢ ، تحت حكم ميتران ، تعدى الرقم المليونين ، وفى عام ١٩٨٦ بلغ إجمالى العاطلين مليونين ونصف المليون ، والدخول إلى الوحدة الأوروپية سيصل بالرقم إلى ثلاثة ملايين عاطل .

يُظهر هذا الارتفاع المستمر أن رجال السياسة عندنا لم يبحثوا سوى عن الحيل : لن تحل المشكلة الكبرى العميقة ، لا من خلال «الوظائف قصيرة الأمد» مثلما اقترح اليمين ، ولا من خلال «التقاعد المبكر» مثلما اقترح اليسار .

الحل الجذرى الوحيد هو الانفتاح على العالم الثالث ، حيث الحاجات وبالتالى الأسواق العملاقة ، بشرط ألا نعتبرها مصرفا لفائض اقتصادنا المشوه الذى ينتج الكثير من أجل الإسراف - بل ومن أجل القتل - أى أكثر من الحاجات الحقيقية للشعوب ، شعوبنا وشعوبهم .

هذا هو ما تتضمنه سياسة تحويل الإنتاج نحو تلبية الحاجات الحقيقية .

إن إفريقيا في حاجة إلى كمية هائلة من خزانات الطاقة الشمسية أكثر من حاجتها إلى الجوارب ومزيلات العرق والعطور.

تحويل الإنتاج يحل المشكلة الرئيسية للبطالة، وأيضا مستقبل الاستهلاك في بلادنا.

ستجد مشكلة كبرى أخرى حلها أيضا في هذه العلاقات الجديدة جذريا مع العالم الثالث: مشكلة الهجرة، الطريقة الوحيدة الإنسانية والواقعية في الوقت نفسه لتعطيل «غزو» البؤس.

في النهاية، مثل هذا التحويل لايمكن أن يحدث «من أعلى». إنه على العكس يتطلب مشاركة الجميع لمقاومة اللامعنى.

إقامة نخبة التكافل فى مواجهة دكتاتورية السوق

كتب روسو فى العقد الاجتماعى : «لم توجد أبدا الديمقراطية ، ولن توجد مطلقا» * .

لم يوجد إذن سوى ديمقراطيات شكلية : تلك التى قامت فى أثينا فى زمن پركليس ، أو فى ظل الجمهورية الرومانية ؛ «الديمقراطية فى أمريكا» التى قام توكفيل بوضوح بتحليل أساسها وانحرافاتها منذ عام ١٨٣٠ ؛ ديمقراطية إعلان حقوق الإنسان ، والثورة الفرنسية ؛ والأشكال الحالية المختلفة ، «الديمقراطية الليبرالية» القائمة على وحدانية السوق .

تعلم كل تلاميذ المدارس فى الغرب احترام هذه الأصنام . إنه من الضرورى إذن تصحيح الآلية المدرسية ، ثم الإعلامية ، لهذا

---

* لا بلايدا - دار نشر جاليمار ص ٤٠٦ .

الخداع الهائل أو تزوير التاريخ الذى يقود إلى إعداد جيل فى المستقبل من الغشاشين والقتلة ، أو حتى إلى حرماننا من أى مستقبل .

ألم يشر الأمريكى فوكوياما إلى الوضع الحالى ـ المميز بانتصار «السوق» كمعيار وحيد لكل العلاقات الاجتماعية ـ كديمقراطية تحدد «نهاية التاريخ» ؟

بداية من سنواتنا المدرسية الأولى ، يعلموننا اعتبار أثينا ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بمثابة الأم والنموذج للديمقراطيات ، وهذا ينسينا أنه فى أثينا فى زمن بركليس ، كان هناك ٢٠٠٠ مواطن حر ، لكن أيضا ١١٠ آلاف شخص محرومين من كل حق سياسى .

كانت هذه الديمقراطية أوليجارشية *، قائمة على أكتاف الرقيق . كل الأشكال التاريخية الأخرى للديمقراطية تعتمد على الوهم نفسه والدجل نفسه .

عملية استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن الاستعمار البريطانى ، أعلنت المساواة لكل البشر ، لكنها حافظت طوال قرن على العبودية ، التى لم تلغها إلا بعد حرب أهلية . واستمرت التفرقة العنصرية ضد السود حتى اليوم !

أعلن الدستور الفرنسى الأول فى مقدمته ، أى فى إعلانه

---

* أوليجارشية : حكم القلة ـ حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة متسلطة ، همها الاستغلال (المترجمة) .

لحقوق الإنسان والمواطن : « كل البشر يولدون أحرارا ومتساوين فى الحقوق »، لكنه استبعد فى مواده حق التصويت من ثلاثة أرباع المواطنين الذين أكد أنهم «مواطنون سلبيون»، عن طريق نظام اقتراع قائم على الملكية .

حتى لا نستمر فى مضاعفة الأمثلة ، سنعتمد على المثل الأكثر حداثة . كتب أحد الصحفيين بمناسبة انعقاد مؤتمر مدريد للسلام فى الشرق الأوسط فى نوفمبر عام ١٩٩١ : إن إسرائيل ضربت المثل للعرب فى «الديمرقراطية» .

هنا أيضا ، «شفرة المواطنة» كانت تضع حدود «قانون العودة» (٥٧١٠، لعام ١٩٥٠، المادتين ١ , ٤) . وهو القانون الأساسى للدولة الإسرائيلية التى تسمى دولة يهودية . عرّف هذا القانون اليهودى بأنه من يولد من أم يهودية أو يكون قد تحول إلى الديانة اليهودية طبقا للحاخامات ! معيار الدم ومعيار الدين: من هنا تنبع كل التفرقة العنصرية .

ليس هذا سوى حالة خاصة من أسطورة الديمقراطية فى إسرائيل. ديمقراطية مطلقة لليهود ، لكنها محدودة أو معدومة للآخرين .

فى أثينا بركليس ، كانت الديمقراطية من أجل القلة القليلة .

ديمقراطية «الآباء المؤسسين» للولايات المتحدة، إنما هى ديمقراطية من أجل البيض ، لا للسود، وطبعا لا للهنود الحمر .

فى إعلان حقوق الإنسان ، الذى ذُكر سابقا : «المالك فقط هو المواطن» ، كما كتب من قبل ديدورو فى موسوعته (مادة : ناخب) : ليس من لا يملك .

* * *

تصبح الديمقراطية أكثر وهما عندما لا يُسمح لها بالدخول فى المؤسسات والمنشآت الاقتصادية ولا فى الثقافة.

فى الديمقراطيات المسماة ليبرالية ، لا تسمح هيمنة رأس المال بأى مشاركة ديمقراطية حقيقية .

فى مثل هذا النوع من الديمقراطية ، والتى رأيناها فيما يخص الولايات المتحدة الأمريكية ، لا يتوقف التفاقم فى عدم المساواة مع تكدس الثروة ناحية أحد الأقطاب فى المجتمع . تكشف «المعطيات الاجتماعية» فى فرنسا ، لعام ١٩٩٠ ، أن ١٠٪ من الأكثر ثراء يتقاسمون ٥٤٪ من ثروات شعبنا ، والـ ٥٠٪ الأقل ثراء يتقاسمون ٦٪ . فى أربعة أرقام فقط ، أصبح لدينا محصلة الديمقراطية الليبرالية ، عنوان اقتصاد السوق ، الذى هو محتواها الحقيقى .

«ديمقراطيتنا الثرية والعالمية ، تترك جزءا ليس هينا من شعوبها للموت من الجوع والأمراض ، أكثر من تسعة أعشار الجنس البشرى . هل مازال لديهم الحق فى هذا العنوان الجميل للسياسة ؟

هل عرف التاريخ نخبة أو شمولية اقتصادية وثقافية بمثل هذه الشراسة ؟ هل تخشون مما هو أخطر ؟ » *.

النتيجة الأولى والأكثر رعبا ، لهذا الاحتكار للثروة من طبقة معينة ، هى أن كل وسائل الإعلام، والدعاية، والثقافة ـ السينما ، التلفزيون والفنون ودور النشر ـ أصبحت فى أيديهم .

تملك إحدى محطات التلفزيون أن تمد وتطيل الحديث حول غرق طفلة صغيرة بطريقة شديدة الإثارة وسادية ، لكنها تصمت تماما على آلاف المدنيين والجنود العراقيين الذين دفنوا أحياء بعتاد شوارسكوف الآلى . مثل هذا قادر على تدمير كل «رأى عام» حقيقى، والذى وبدونه لن يكون هناك وجود للديمقراطية .

مثل هذا التليفزيون قادر على تحقيق «التكييف» السياسى اللازم لكل الأنظمة الديكتاتورية** .

لم يعد الاقتراع المباشر ضمانا للديمقراطية . إنه لم يكن كذلك فى الماضى أبدا . أقر هذا النظام فى فرنسا فى عام ١٨٤٨ ، ولم يعمل به سوى مرة واحدة : من أجل إقامة ديكتاتورية نابليون الثالث باستفتاء شعبى .

لم يصل هتلر إلى السلطة بانقلاب عسكرى، لكن بطريقة أكثر

---

* ميشيل سارس، لوموند ٢١/١/ ١٩٩٢ .

** يُطلق على ذلك تعبير سياسى جميل : «المواءمة السياسية» .

ديمقراطية من بقية العالم ، فى أكثر جمهوريات العالم ديمقراطية وليبرالية فى ڤيمار، حيث حصل على الأغلبية المطلقة من أصوات شعبه، وهو واحد من أكثر شعوب العالم ثقافة .

الاقتراع المباشر ليس أبدا ضمانا ضد الاستبداد.

على عكس الأحكام المسبقة التى تتحمس أجهزة الإعلام لغرسها فى الرأس ، ليس صحيحا أن حرية السوق تأتى بالديمقراطية.

إنه من الممكن تماما فرض قوانين السوق عن طريق الاعتداء الصارخ على الديمقراطية. تلك كانت الحالة فى شيلى فى عهد بينوشيه، حيث كُرست كل قوى الدولة للضغط وبث الرعب من أجل محاربة كل عقبة أمام العمل غير المحدود للخصخصة والسوق . لهذا تم دفعه إلى السلطة، والحفاظ عليه طويلا بفضل مساعدة «الديمقراطية» الأمريكية .

هذا ليس سوى مثال، لكن يمكننا أن نذكر أيضا ، فى الجانب الآخر من العالم، مثال كوريا الجنوبية .

تتأكد اليوم بوضوح كذبة تطابق الديمقراطية مع حرية السوق ، وهى عقيدة السياسة الأمريكية .

أعطى مبعوث بوش إلى لجنة حقوق الإنسان فى چنيف تعريفا دقيقا بقوله: « نحن مع الديمقراطية لكل الشعوب لأنها الإطار السياسى للرأسمالية. ترغب الديمقراطيات الرأسمالية فى توثيق

التجارة معنا، ويعرضون أنفسهم لنا أكثر من مجرد سوق ، الأمر الذى يسمح لنا بمساعدة أنظمتهم ، القريبة من أنظمتنا ».

لم نكن لنتخيل تأليفا ساذجا للديمقراطية ووحدانية السوق والهيمنة الأمريكية أكثر من هذا .

يظهر فى شرقى أوربا الاتجاه إلى فرض حرية السوق بحجة الديمقراطية . أمام ارتفاع الأسعار ، البطالة المتزايدة ، الإفلاس الموجود بسبب «تحرير السوق» والذى أدى إلى استياء متزايد فى الشعب البولندى ، أمام كل هذا أعلن ليش ڤاليسا فى لونوڤيل أوبزرڤتير فى ٢١ من نوفمبر عام ١٩٩١ ، قائلا : «پولندا فى حاجة إلى سلطة قوية، نوع من الدكتاتورية الاقتصادية!!» .

حتى فى روسيا ، ومن أجل الإسراع فى إقامة الرأسمالية ، قرر يلتسين تقييد الصحافة ، والجمع بين سلطات الرئيس ورئيس الوزراء . جعل لنفسه الصلاحيات التامة والكاملة لمدة عام معطيا نفسه حق الحكم من خلال إصدار القرارات ، «حتى لو كان ذلك يتعارض مع الدستور».

تستخدم «التعددية» الحزبية كفخ فى مواضع أخرى .

أحقًا توجد فى الولايات المتحدة الأمريكية تعددية حزبية ، بدعوى وجود حزبين، الحزب الجمهورى والحزب الديمقراطى ؟ لاتسمح مشروعاتهما وبرامجهما بأن نفرق بينهما!

إنهما جماعتان تمثلان بالتبادل الحزب الوحيد للمال، فى غياب أى حزب شعبى من جهة أخرى.

يعى الناخبون الأمريكيون كل يوم أكثر فأكثر هذه الكوميديا : يعبرون بعدم مبالاتهم بأقنعة الفيل والحمار عن طريق الغياب الجماعى ، الذى يصل إلى ثلثى الأصوات الانتخابية ، خاصة بين الطبقات الأكثر فقرا ، حتى إن المرشح الفائز لا يعثر على أكثر من ١٠٪ من أصوات الناخبين المقيدين .

ألم نتعود نحن، فى فرنسا منذ بداية الجمهورية الثالثة حتى احتضار الجمهورية الخامسة، على مشاهدة حزب منتخب «من اليسار» يُنهى الفترة التشريعية بتحقيق برنامج اليمين؟ حتى لانذكر سوى الأمثلة الشهيرة : حكومة إدوارد هيريو و«تجمع اليسار» ، دفعها المال للاستقالة ، واعترف بقوله : « لقد اصطدمت بحائط المال! » . وحكومة الجبهة الشعبية مرورا باستسلام ميونيخ ، عدم التدخل فى إسپانيا حيث كان عصيان فرانكو المسلح مؤيدا بوضوح من هتلر وموسولينى ، حتى انتهى الأمر بالاستسلام فى بوردو لأحضان پيتان .

حقيقة، أى إله رأى الفرق بين حكومة السيد بيرچوچوى وحكومة السيد بار؟

أين الفرق فى السياسة الخارجية التى تعنى بإرسال جنود فرنسيين إضافيين لأرمادا بوش ، أو إلى مؤتمر مدريد حول الشرق الأوسط، أو حتى الفرق بين مواقف السيد ميتران والسيد چيسكار ديستان ؟

لا تحدث المواجهات إلا حول «العمليات القذرة» ، التى يلقون بها بالتبادل ، أو حول طرق التصويت من أجل تكديس الأصوات لصالح أحد الأطراف .

تلك هى المعركة المسماة «سياسية » بين الأحزاب عديمة المشروعات الإنسانية .

أثار سقوط النظام السوڤيتى و «الأنظمة الديمقراطية» التى لم تكن تحمل من الشعبية سوى اسمها ، أثار جدلا إعلاميا يضخم جرائم البعض ليمحو من الذاكرة دناءة البعض الآخر ، من الذين يستخدمون الإعلام لتبرئة أنفسهم .

تتيح مانوية* «إمبراطورية الشر» هذه التى خططها رونالد ريجان و« إمپريالية النهابين» التى خططها برچنيف، إخفاء الأسباب العميقة التى قادت إلى الصمت التام لبعضهم وقادت البعض الآخر إلى همجية الغابة .

تنصيب نمو الإنتاج هدفًا نهائيًا للنشاط الإنسانى ومعيارا للتقدم ، يولد بالضرورة عدم المساواة والهيمنة ، فى الأنظمة الرأسمالية المختلفة كما فى الأنظمة «الاشتراكية» بسبب الأيديولوچية الإنتاجية الغربية .

أثبت ماركس أن التراكم الضرورى لرأس المال لم ينتج من

---

* المانوية : مذهب فارسى جوهره الصراع بين النور والظلام .

«الادخـار»، لكن مـن الـسـحق الرأسـمـالـى ، الذى تتزامن عـملياته الأولى للاغتصاب مع ميلاد الرأسمالية .

لـم يكـن «الادخـــار» هـو الذى ضـــاعـف الإمكـانـات المـــاليـــة للاستثمارات والمضاربات فى البورصة ، لكن نهب الذهب من العالـم الجديد المتدفق على أوربا ، وخاصة على المراكز التجارية الكبرى والملاحية فى إيطاليا وألمانيا عبر إسپانيا الطفيلية . هكذا أصبح ممكنا من خلال مضاعفة الوسائل المالية ، تجميع الأموال على مستوى واسع ، لأن المال يفتح إمكانات تجميع الثروة . إذا لم يكن هناك مال ، يمكن أن نسرق لكننا لايمكن أن نجمع السرقات .

لم يكن الادخـار هو الذى صنع المـراكـز الأولى للصـوف فى إنجلترا لتصبح أكبر قوة مصدرة للنسيج فى العالم . إنه نهب القطن الهندى ، الذى بتدميره للصناع الهنود المهرة ، جعل من مانشستر أكبر مستورد للمواد الأولية وأكبر مصدر للقطن المنسوج .

لم يكن الادخـار هو الذى وهب الغـرب البتـرول الذى أصـبح محرك نموه . إنه التقسيم ، بعد الحرب العالمية الأولى ، كغنيمة حرب ، للإمبراطورية العثمانية ، الذى أتاح لإنجلترا ولفرنسا ، ثم للولايات المتحدة ممارسة هيمنتهما على كل آبار البترول فى الشرق الأوسط ، عن طريق الامتيازات المزروعة فى إيران وفى العراق إلى الخليج ، والتى أنشئت فيما بين عامى ١٩٦١ و ١٩٧١ .

هذا التـجـمـيع الأول ، ثمـرة خـمـسـة قـرون من اللـصـوصـيـة

الاستعمارية ، سمح بنشأة تبادلات غيرمتكافئة بين العواصم الاستعمارية ومستعمراتها ، لكن أيضا داخل العواصم الأوربية الاستعمارية نفسها ، بين رؤساء الشركات والعاملين المأجورين .

تصبغ آلية التبادل غير المتكافئ بين المستعمرين والشعوب المستعمرة علاقة الهيمنة . هيمنة عسكرية وهيمنة اقتصادية : في الحالتين يعني ذلك علاقة قوة وتبعية .

كانت الديمقراطية الزائفة دائما ، القناع لسلطة الأقلية . في أيامنا هي قناع لوحدانية السوق ، أوبقول آخر : اللامعنى في حياة وتاريخ الإنسان .

إعادة بناء النسيج الاجتماعى

نحن بحاجة إلى نسيج اجتماعى وسياسى جديد، تشارك في القاعدة مشاركة حقيقية، عوضًا عن نظام الأحزاب. وحتى نخوض المعركة من أجل اقتصاد ذى وجه إنسانى.

تتوقف نتيجة تلك المعركة - كثيرًا - على تحرر الإعلام. تعاني أجهزة الإعلام اليوم من سيطرة رأس المال، مما يؤدى إلى أخط أنواع الاحتلال: الاحتلال الخفى للإنسان عن طريق «تشويش الأفكار. الاحتلال موجود فى كل مكان، فى العقول وفى القلوب مثلما هو موجود أحيانا فى مدننا. هل يعنى هذا أنه لا يمكن التخلص من ذلك الاحتلال الساحق؟

هناك أعمال ومجهودات فردية فى كل مكان، تكافح من أجل الإنسانية، وضد التيار الإعلامى الكاسح لشبكات التليفزيون ووكالات الأنباء العالمية. أفكر فى «أمل الفقراء» المنشور فى مون فى بلچيكا، إنه مصدر معلومات مهم عن العالم الثالث.

أفكر أيضا فى نشرة العلماء النوويين لمركز ساڤلاى ، حول الأخطار النووية . أفكر فى «بدائل غير عنيفة» ، من أجل المعلومات وردود الأفعال حول التسليح ؛ فى صحف الجماعات المسيحية حول التجارب الجماعية ؛ وفى الإعلانات المتعددة للبيئة التى تكشف الأخطار الكوكبية ، وفى غيرها .

توحيد هذه التجارب وهذه الآمال هى مهمة عاجلة ، حيث إن توجيه الحساسية الخاصة لكل شخص حول مشكلة من المشكلات سيساعد من خلال تأثير متبادل على تكوين وجهة نظر شاملة ، وسيسمح بإعادة تكوين نسيج اجتماعى جديد .

إنبات ملايين الأوراق الجديدة فى شجرة الحياة ، فى مواجهة شياطين الإعلام ، ووسائل الاتصال ، والتلفزيون . أوراق مخطوطة باليد ، منسوخة ، مطبوعة ، لها هدف مزدوج : فى البداية ، الإعلام عما يخفى عنا ، والبدء بالإيضاحات بالأرقام عن تكاليف التسليح وثمن طائرة حربية أو صاروخ . كم تكلف العالم السجائر والمخدرات والخمور؟

كم ربحت هوليوود من أفلام اللامعنى؟ وكم يخسر العالم من نقود ووقت وانحطاط فكرى؟ وكم يتكلف العالم فى شراء الأزياء والتقاليع وما إلى ذلك . . . ؟

الهدف الثانى : التفكير حول معنى هذه المعلومات من أجل العمل على ميلاد موقف مشترك ، انطلاقا من التذكير بالهدف النهائى للمشكلات لشعب أو للعالم .

هذا العمل الأول من كشف اللامعنى ، انطلاقا من مجتمعات القاعدة، يلزمه التناسق من أجل مضاعفة قوته من خلال التبادل والعمل المتبادل .

لماذا إحلال كلمة «شبكة» مكان كلمة «حزب» ؟

لا تضمن تعددية الحزب الديمقراطية ولا تكفل المشاركة على مستوى القاعدة في كل القرارات التي يتوقف عليها المصير .

لا تعتمد الشبكة على حفنة من الرؤساء مثل الأحزاب ، لكن على التنسيق حيث لا تملك أي جماعة امتيازا ما على الجماعات الأخرى سوى سلطتها في الاقتراح ، في المبادرة في إطار المشاركة في المشروع المشترك .

أيضا ، الشبكة هي عكس الحزب . الهدف المشترك محدد : التحرر من ديكتاتورية المال ووحدانية السوق، كل شخص يملك أن يشارك بوعي ، في « إيقاظ الوعي» ، طبقا للتعبير المشهور عند أمريكا اللاتينية عند مجتمعات القاعدة ومنظري التحرير .

يتيح التذكير بالأهداف النهائية الإنسانية في مواجهة المنطق الأعمى والقاتل للسوق والمصالح المادية ، بدء تنفيذ أشكال جديدة من العمل . لمبادرات القاعدة دور المحرك .

يوجد في فرنسا وفي العالم، بشر كافون يثيرون الأسئلة حول الأهداف النهائية والمعنى للنظام الحالي الذي يعون فساده الجوهري ومخاطره .

يمكن لهـذه الشـبكـات أن تولد غـدا ، وفى كل مكـان ، من أجل إعادة تكوين النسيج الاجتماعى الجديد ، وتفجير الشرارة الصغيرة التى ستصبح شمسا مضيئة للبشرية .

يتطلب ذلك جهدا ضخما ، ولنبدأ بأنفسنا ، فيتخلص كل منا من الاعتقـاد بحيازته الحقيقـية المطلقـة ، هو أو جماعتـه أو حزبه أو كنيسته ، ويسمع للآخر ويقبله .

نخبة التضحية والسلطة الأولى *

بأى وسيلة عملية تبدأ الحركة الحيوية للتحويل المادى، وتحويل الضمائر الحية دون وهم مثالى أو آلية مادية ؟

يوجد بالفعل أشكال جنينية ، وبدأنا نلحظها ، مؤسسات تشهد بالحاجة إلى منظمات ليس عليها وصاية سياسية أو اقتصادية ، للتصريح بالحقيقة حول أداء النظام : مجلس دستورى ، محكمة حساب ، لجنة أخلاقية للعلوم ، إلخ .

تكمن حدود مثل هذه المنظمات فى حقيقة أنها ليس لها مهمة تغيير النظام ، لكن فقط الكشف عن بعض الفساد . «استقلالها» يجب أن يكون شاملا فى مواجهة القوى السياسية والقوى الاقتصادية واللوبى الذين يتصارعون لنيل جزء منها . وإن الحاجة إلى مثل هذه المنظمات حقيقية .

---

* يقصد بالسلطة الأولى : الإعلام .

يوجد أيضا ، حتى فى الأزمات والاضطرابات الشاملة ، فى أعتم الأيام، رجال ونساء ، يقدمون الدليل اليومى فى العمل والتفكير ، على أن المصلحة الشخصية ليست هى محركهم الوحيد . يخصص هؤلاء الرجال والنساء حياتهم بأشكال مختلفة ، للبشر فى مجموعهم، وذلك لوعيهم بمأساة الإنسانية ؛ والخطر الذى يحدق بالأرض.

لا يمكن اغتيال كل الشهود من أمثال غاندى ، مثل القديس بونهوفر أو مثل لوثر كينج ، أو مثل السيد روميرو أو الأب إلاكوريا .

يوجد فى جميع أنحاء العالم آباء مثل الأب پيير وقادة مثل كوستو، وآخرون مثل يهودى منوهن و هيلدر كامارا ، وأمهات مثل الأم تيريزا، وأساتذة مثل جون برنارد ، سوزان چورچ والأب كوزمى، وأخوات مثل الأخت فان ديرميرش ، وذلك من أجل فضح النفاق والدناءة تجاه العالم الثالث .

هناك علماء تربية مثل باولو فرير من أجل تصور للحرية، منظرون للأمل مثل جورجن مولتمان أو للتحرير مثل ليونيز بوف، ومسلمون مثل عصام عطار أو شيبان، الذين يعيشون جوهر الإسلام، وصحفيون قادرون ـ مهما كلفهم ذلك ـ على السباحة ضد التيار، ليأتوا إلينا بشىء مختلف غير الكوارث عديمة المعنى، ويبحثوا لكى يجعلونا مستيقظين لكل ما هو فى مرحلة الميلاد والموت . هناك ضباط بحريون فى فيجى، مثل إكزافيه سالنتان، من أجل التنقيب عن سبل المستقبل، مثل ماريا بنتا سيلجو التى سعت

لتأنيث السياسة بهدف ألا تستمر كما كانت منذ ستة آلاف عام، مصنوعة للرجال ومن أجل الرجال. رجال من أمثال برنارد مواتوسيه الذى أظهر للعالم كله عن طريق سيطرته وحيدا، على ملاحة سفينة، كيف يكون الرجل الحقيقى. رجال لا يمثل لهم المال والوضع الاجتماعى المحرك الوحيد للحياة.

لكن إلى جانب هذه الأمثلة المختارة عشوائيا من تجاربى الشخصية، هناك الآلاف من الأمثلة الأخرى فى كل مكان يعيشون، حيث يكونون، القلق، والأمل الجوهرى للعالم.

«السهرات من أجل أجيال المستقبل» للقائد كوستو، أو معالجات الأب پيير من أجل «المشردين»، كانت تلقى جمهورا أكثر حماسة من برامج الممثلين الأكثر شهرة إعلاميا.

هل هو من قبيل السخرية المثالية التفكير فى أنه من الممكن جذب الملايين من المشاهدين، بوسائل متعددة، لكى يقوم التليفزيون فى ساعات الذروة بتقديم تجارب أولئك البارزين وأهمية التحولات التى يجب إنجازها لإعطاء معنى لحياتنا؟

إلى جانب التأثير المخدر لشاشة التليفزيون، وتسطيحه للأحداث العالمية، وإبرازه الشخصيات الخفيفة، يمكن أن نذكر أن هناك آلاف الرجال والنساء فى كل المجالات، من الزراعة إلى الفنون، يشكلون أهم وأكبر ثروة: الإبداع.

اعتمادا على هؤلاء، يمكن خلق مراكز للإشعاع لكى لا ينغلق أى

شخص داخل تخصصه، ولكن يعى ارتباطه بالمجموع الحى لكل هؤلاء الذين يحبون المستقبل، ولديهم الوعى بكونهم مسئولين عن الإعداد له.

هناك علاقة وثيقة، فى الشكل الناتج من هذه المراكز، بين المشروعات الألفية للبشر من كل الحضارات والعمل اليومى من أجل الخدمة الإبداعية للمجتمع، مما سيؤدى إلى انبثاق رجال «سياسة» من نوع جديد، يهتمون بالهدف النهائى للمجتمع والحياة، كما يهتمون بأمور الحياة اليومية.

فيما يتعلق بمثل هذا الفساد الشامل للسلطة وللأقوياء، أعرف كم يبدو مثيرا للسخرية، إلى الحد المثير للضحك، طرح إيجاد حيلة بأى طريقة، لإعطاء مهلة سياسية، يرجع فيها هؤلاء عن كل دخل مالى أعلى مما يحصل عليه «الكادر» المتوسط فى الوظيفة العامة.

لن أجيب عن كل من يسخر من هذه السذاجة المجنونة، من خلال أمثلة مثيرة أو تاريخية بعيدة، مثل أمثلة النساك وحكماء الهند الفيديين، الذين يطيعهم التجار والمحاربون، أو أمثلة القرآن من حيث يؤكد الله: **﴿وإذا أردنا أن نُّهلك قرية أمَرنا مترفيها ففسقوا فيها فحَقّ عليها القول فدمَّرناها تدميراً﴾***، أو الرهبان المسيحيين العلماء أو مستصلحى الأراضى. سنأخذ المثل الأكثر قربا: ذلك الخاص بتجربتى الشخصية. الحزب فى داخله، فى زمن عظمته، لم

* الإسراء: ١٦.

يكن أى عضو، أى قائد فيه يتلقى مرتبا أعلى من مرتب عامل مؤهل فى منطقة باريس. تجربة خصبة لنائب رئيس الجمعية الوطنية، يعيش يوميا المصاعب التى يعيشها موظف متوسط من أجل إعالة أسرة من ثلاثة أطفال، متوقعين أن تكون الأم تعمل خارج المنزل من أجل المساعدة فى ذلك.

المحصلة الشاملة استمرت طوال تطبيق هذه القاعدة، لم يرتكب أى برلمانى أو قائد لهذا الحزب أى عملية فساد.

يوتوبيا؟ لا ليست كذلك: إنها حقيقة يومية معاشة طوال ثلث قرن.

أليس هناك حقائق أخرى غير الفاسدة؟ وهل لا بد أن نكون مثل دون كيشوت من أجل الجهاد للخروج؟

هكذا فقط يمكن أن تُشكل، ثم تكون فى كل شعب، «أرستقراطية» أو «نخبة» من طراز جديد، ليست قائمة على الدم، الأرض أو الثروة، لكن على التقشف. هذه النخبة الزاهدة هى الشرط لديمقراطية حقيقية فى النهاية، حيث لا تحمل السلطة أى مزايا، لكن تضحيات.

الخـــــلاصـــة

استعــادة الأمـل

المستقبل ليس «ما سيكون»، لكن ما سنصنعه . التاريخ لم يكن أبدا محتوما ، لأن الإنسان ليس جماد ا، ولا حيوانا . إنه ليس أسير إحدى الغرائز ولا عبدا لقدر ، ولا الطفل المدلل للعناية الإلهية ، ولا دمية متحركة لأى حتمية .

يصنع الإنسان تاريخه الخاص، ما يفرق الإنسان عن كل الكائنات الأخرى للطبيعة ، هو أنه يبتكر مشروعات وأنه يصنع المستقبل .

عندما نقرأ الماضى، فإننا على الأرجح نقرأ ما كتبه المنتصر . المنتصرون هم الذين كتبوا التاريخ : من أجل تبرير انتصارهم، لا بد أن يُظهروا أنه كان الحل الوحيد للمشكلات المطروحة . لكن مازال أمامنا مجال الممكن فى المستقبل مفتوحا .

عندما كتبت منذ أكثر من عشرين عاما ، فى اليوم التالى لسحق

ربيع براج : «ليست هذه هى الاشتراكية!» ، فى كتاب حمل عنوان «استعادة الأمل» ، اتهمنى البعض فى حينه بأننى حالم وواهم (يوتوبيست) . يوتوبيا اليوم، المشروع لن يكون بالضرورة حقيقة الغد ، لكنه يقترحها.

فى المقابل ، يكفى أن نعتقد أنه ليس هناك ما نستطيع أن نفعله والتصرف على هذا الأساس ـ أو بالأحرى عدم التصرف ـ حتى نكون قد تخاذلنا واستسلمنا .

تبدأ إنجازات المستقبل فى عقل وقلب البشر ، لأن الأسلحة كل الأسلحة، أيا كان نوعها ، حربية ، پوليسية، اقتصادية بيروقراطية أو أيديولوچية ، تستعمل من خلال البشر . وعندما يحطم شىء فى رأس وقلب هؤلاء البشر ، تسقط الأسلحة ، حتى الأكثر تعقيدا من أياديهم .

لهذا يخطئ العسكريون والسياسيون دائما ، وهم الذين يقيسون القوة فقط بالقدرة على إطلاق النار.

يحدث فى بعض الأحيان أن تنتصر أضعف الجيوش، مثلما حدث فى ڤيتنام والجزائر ، أو حتى أن يستطيع شعب أعزل تجريد قوة عسكرية من سلاحها، مثلما حدث لشاه إيران . هذا يثير اضطرابهم : فالإيمان لا يدخل فى حسابات الكمپيوتر .

هذا الكتاب، الذى يخصص مكانا كبيرا ـ بشكل متناقض كما يفكر البعض ـ للإيمان من أجل الإعداد لمشروع سياسى ، يهدف بصفة خاصة إلى إثارة الوعى بالوحدة العميقة بين سياسة ليست جزءا

من سوق لكن فرعا من الثقافة ، وإيمان ليس فقط إيمانا شفويا ، طقسيا ، لكن على العكس هو الجزء غير المرئى من الفعل ، مثلما الفعل هوالتعبير المرئى للإيمان .

هذا الفعل هو الأكثر واقعية من أى شىء آخر ، لأن اليوتوبيا «المدينة الفاضلة» السيئة هى الوضع الراهن ، ويؤدى مثل هذا الانحراف إلى موت الإنسانية .

ارتكب الغرب أخطاء فى التوجه أثناء تكوين مشروعاته . بصفة خاصة منذ بداية القرن الرابع ، بأن استبدل برسالة المسيح نظرية لاهوتية للهيمنة :

لا خلاص خارج الكنيسة . .

لا حضارة خارج الغرب . .

لا يتساوى الشعب المختار مع بقية البشر .

أعطى عصر النهضة مفهوما مشوها للعقل على اعتباره أداة للقدرة والاستغلال التقنى ، أعطى للإنسان وسائل هائلة لكن ليس لها أى أهداف أخرى سوى زيادة الإنتاج والخدمات ، وخفض التكاليف لزيادة الإنتاج .

يعنى ذلك أن علينا إعادة النظر فى وظائف الدين والسياسة والاقتصاد .

كل شخص منا مسئول .

أو كما يغنى الشاعر نظيم حكمت :

إذا لم أحترق . .

إذا لم تحترق . .

إذا لم نحترق . .

فكيف يمكن للظلمات أ ن تصبح مضيئة؟!

فهـــــرس

رقم الإيداع ١٥٠٢٤/ ٩٨
الترقيم الدولى 0 - 0507 - 09 - 977